وَرْدَةُ التَّخْييلِ الذَّاتِيِّ



مُتتالِيَةٌ شِعريَّةٌ: أشرف يوسف

رسوم: كارولينا



وَرْدَةُ التَّخْييلِ الذَّاتِيِّ

وردة التخييل الذاتي

أشرف يوسف

متتالية شعرية

الطبعة الأولى: ٢٥ يناير، ٢٠٢١، القاهرة، طبعة محدودة ورقية بعدد ٢٥ نسخة، ونسخة إلكترونية للجميع بصيغة Pdf تنشر لأول مرة بالتزامن في مدونة بيت النَّص.

رسوم: كارولينا كارويل.

مراجعة: محمود شرف، محمد سادات التوني.

تنسيق: شركة المحرر the editor.



يوسف، أشرف. وردة التخييل الذاتي: متتالية شعرية/أشرف يوسف – ط١ محدودة ورقية بعدد ٢٥ نسخة، القاهرة ٢٠٢١، ص، ٢٠ في ١٤ سم،

رقم الإيداع: ٢٠٢١/١٥٧٢ تدمك ١- ٠٠ ٨٣ – ٩٠ – ٩٧٧ – ٩٧٨ ISBN، الشعر العربي – تاريخ – العصر الحديث أ _

العنوان ديوي ٨١١.

وَرْدَةُ التَّخْيِيلِ الذَّاتِيِّ

مُتتالِيَةٌ شِعريَّةٌ:

أشرف يوسف

رسوم:

كارولينا كوريل



أُنجِزَ كتاب وردة التَّخييل الذَّاتي.. مَشاهِدُ طَويلَةٌ بين أَرْبَعةِ جُدران في الشهور الأولى من عام ٢٠٢٠، وفي ظروف عزلة جائحة كورونا.

فَلْيَسْقُطْ زَيْفُ "نَحْنُ" أَمامَ هَيْمَنَةِ ضَميرِ المتَكلِّمِ على حَنْجَرتي؛ وهي تَتَهيَّأُ لمغادَرَةِ الصَّمْتِ وعارِهِ الَّذي يَقْتُلُني بِبُطْءٍ... **إلى:** چيچي.. شاعرة القرية، وأحمد دومة.. شاعر السِّجن.

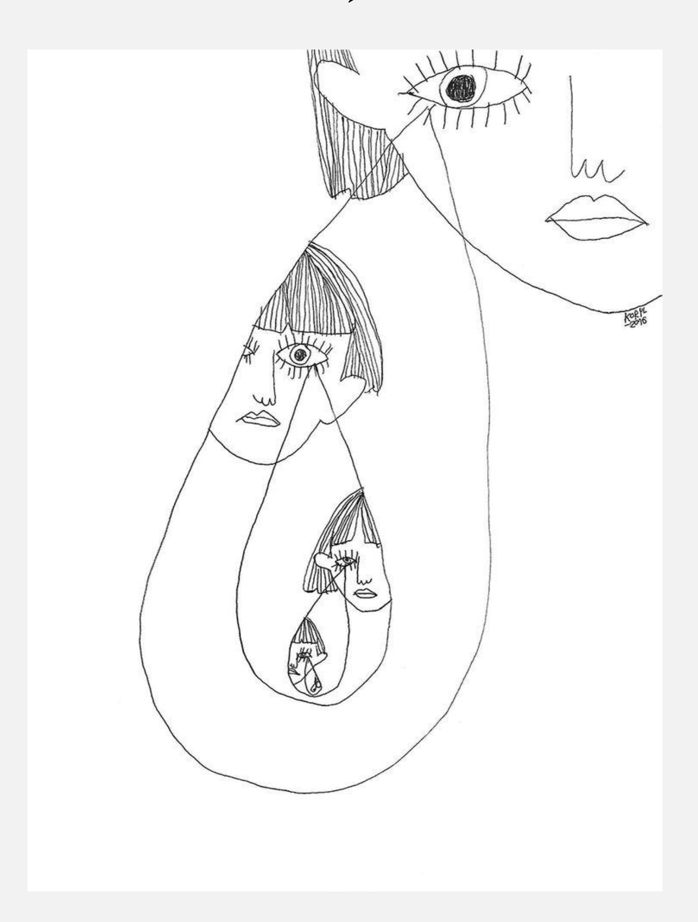
المحتويات:

- القِسمُ الأَوَّلُ:

- القِسمُ الثَّاني:

القِسمُ الأَوَّلُ:

يَوميّاتُ حَظرِ التِّجوالِ



«باسِمِ الحَياةِ أَلْقاني هَؤلاءِ

الأَقارِبُ في دارِ المجانِين*».

مي زيادة

مذكرات مستشفى العصفورية للأمراض العقلية

بيروت

*براين، ماركو، إيزابيلا، چينارو، وماريانا..

في الفترة: من ٢٠١٢ وحتى ٣٠ يونيه ٢٠١٣.



٥

هَجَم الضَّبابُ، وسَنَّ أسنانَه،

وتَجسَّدَ في مساراتٍ لا تُرَى،

وصار مُوزَّعًا بين جهاتٍ عديدة..

فغطَّى الأسفلتَ والمدرَّعاتِ والجنودَ خارجَ الثَّكنات..

فاختفى الميدان الكبيرُ،

وتماثيلُ للكَذِبِ بلا نافوراتٍ، مُعطَّلة..

اختفَت المحلَّاتُ والباراتُ والأكشاكُ الخشبية..

اختفى النائمون المشرَّدون

فوقَ الأَرصِفَةِ على مَقرُبَةٍ من أكوام الزبالة..

اختفت اللوحات الإعلانيَّةُ،

وأعلى مبانٍ في المدينة الصديقة..

اختفى مجمَّع التحرير، وشارع يوسف الجندي،

وهارديز،

والعم رمضان، وفَرشَة جرائد العم رمضان..

اختفى تمثالُ الرجل العظيم*، ومومياوات المتحف

المجاوِرِ..

اختفى الواقِفون على حافَّة الكَعكَةِ الحجريَّة،

والمرأة ذات القَولِ المأثور:

«هُمَّه ماهم ومال السياسة.. ما يروحوا هيلتون»،

واختفت –تِباعًا– الحديقةُ التي بداخلها روائِحُ باذِخةُ

الجَمالِ لخيامٍ ونَومٍ مُتقطِّع..

اختفَت شِلَّة الجَولات الليلية،

ونحتِ العبارة والنكات،

والصور الإيروتيكية.

اختفى كلُّ شيءٍ من أمام عَينيّ،

وتَماهَيتُ مع الاختفاء،

حتى صار جسدي لا مرئيًّا،

وعندما أتحسَّسُه بيديَّ اللَّتَيْن تُقاوِمان

كُلَّ الذي يُشعِرُني بالإهانة والابتذال..

أقبض على فكرةٍ هارِبةٍ لحلمٍ مَفقودٍ

عن «عيش، حرية، عدالة اجتماعية».

---

* تمثال الرجل العظيم: مجاور للمتحف المصري، وهو لعبد المنعم رياض، أحد الأسماء البارزة في تاريخ العسكرية المصرية.

1

رَسمَت لي سيِّدةُ القوافي ومَليكتي الحسناءُ طريقًا،

لم يكن لطرَفَيْه مَقاصِدُ،

لإقامتي الجبريَّة في كباريه العَدَم،

كنت أتحدَّث لرفاقي الليليِّين بودٍّ عن راقصاتٍ

خليعاتٍ،

وأتدرَّب بيني وبين نفسي

على زَوالِ نُقطةِ حُبٍّ وإقامة بداخلي

في تقاطُع مكتبة سندباد وشارع شريف.

أتدرَّب بيني وبين نفسي

ألَّا تتحرَّك في أنحائي الشَّاسِعة؛

أنا الابن القاسي للمَوَدَّة...

أخاف تلك النُّقطةَ تَحديدًا،

ولا أخاف خُلُوَّ الشارعِ من الأصوات؛

فهي تَملؤني عن آخري،

وبودِّي إخفاؤها حتى عن عَينيّ

عندما أجلِبُ تلِّيسكوبًا كأيِّ طفل سجين

في بلكونة شقَّةٍ مُستَأجَرة*

وأُسلِّطه حول هالة النور التي تتوسَّطها؛

لكوني لم أرها يومًا ما بالعين المجرَّدة...

ثم أَكُفُّ فجأةً عن هذه الألعاب

وأبني أكاذيبَ جديدةً لتَنفِرَ منِّي،

ويظلَّ مَكانُها فارغًا في منطقة البورصة،

وشوارعها الجانبية، وبين ضلوعي،

بينما يُوقِفني كمينٌ لِشرطَةِ المدينَةِ الصَّديقَةِ،

وأَشلحُ هُويَّتي لِتُكتَبَ لي السَّلامَةُ والنَّجاة..

كَرَايَتي البيضاءِ التي نَجوتُ بها

من خَطَرِ امرأةٍ شَهيَّةٍ وجَميلَةٍ،

ولم أُصادِفها بَعدُ،

ولا حتى في الأحلام،

ولا بين دِفَّتَي كتابِ أعزَّائي الموتى

في ثَورةٍ شعبيَّةٍ لم تَندلِع بَعدُ.

---

* شَقَّة جاردن سيتي في ٥ شارع النباتات، والأُخرى فوقَ مكتبةِ سندباد بمنطقة البورصة القديمة: هُما خَلفيَّتان رئيسيَّتان للمكان في القِسم الأوَّل الذي يحوي ليالي حَظرِ التِّجوال.

2

في ذلك البيتِ

الذي يُشبِهُ القصورَ القديمة بوسط المدينة،

حيث السَّقف عالٍ عن رؤوسنا،

والشبابيك تأكل الجدرانَ باتِّساعها...

كنتُ مُقيمًا لمدَّةٍ طويلَةٍ

برفقة عاشِقَيْن إيطاليَّيْن..

أدخِّن الحلويات القويَّة،

وألعب بأصابعي لعزف موسيقى صاخِبَةٍ

من حِقبَةِ الجيتار الكهربائيِّ

وأُشخبِطُ فوق بابٍ لحمَّامٍ أبيضَ

كلماتٍ لم أعرف مَقصِدي منها سوى الآن،

وقد مَرَّ زمنٌ كافٍ

لأَعُدَّ نفسي صديقًا لهما

ولستُ ضيفًا طارِئًا

يَصعُبُ عليه الوصول إلى مسكنه؛

لخطورة ما يُقال في راديو المدينة الصديقة؛

وبناء على ذلك ليس مَسموحًا لأحدٍ السَّيرُ بعد

منتصف الليل،

أو الخروج من المكان الذى أَمسَى بداخله،

واعتدتُ البقاءَ مع «ماركو» الأحمق، «وإيزابيلّا»

في شقَّتِهما المستأجَرَة فوق مكتبة سندباد،

وهما اعتادا الأمر.

كانا نائِمَيْن ذاتَ مرَّةٍ كَزوجَيْن من الطُّيور

يُخربِشان بداخل غُرفَةِ المعيشة،

بينما أكتبُ بِخطٍّ بارزٍ عربيٍّ ومُنمَّق:

الحبُّ لحظة، وأَثرُه لا يزول

بين الطُّيور التي خارجَ الأقفاص.

3

في لَيْلِ حَظر التِّجوال

يبدو كُلُّ شيءٍ كأنَّنا في فيلم

ينتظر ثلاثتنا: أنا وماركو وإيزابيلا،

ومَن يتبقَّى من الجاليات الأجنبية

حتى نخرج للمَرَح

بعد الوصول إلى حالة يأسٍ من الكلام والحبِّ،

وأيضًا من العالَم الذي بلا ضجيجٍ في الخارج...

وتكون قد نَفَدَت سجائِرُنا

لنرى أمامنا سَببًا كافيًا لمغامَرةٍ بين نقطة تفتيشٍ

وأخرى.

نحن، الذَّاهبين لشراء الضحكات من المتسكِّعين

أمثالنا،

والنَّاظرين إلى مقهًى لجموعٍ من الفتيات «الكوير»*

على وشك أن تغلق أبوابَها

أمامَ فُحولَةٍ لمدرَّعَةٍ عسكريَّةٍ

وابتذالٍ لأمين شرطةٍ يعشق الخمسين جنيهًا،

ومآسٍ لسُكارى ضَجَروا الإقامة الجبريَّة

من جِدارٍ لجدارٍ.

---

* الفتيات الكوير: مختلفات الجنس.



4

ما الَّذي جاءَ بي إلى هنا

أُردِّد على رفاق اللَّيل

كأنني أُلقي على مسامعهم

مونولوجًا للزخارف عن أفراحٍ ناقِصَةٍ.

ما الذي جاء بي إلى هنا

ناقِصًا من العناق والشَّهوَة والكلمات الطَّريَّة.

لماذا تُحاصِرُني الخشونَةُ

وتَرشقُ إبِرَهَا في روحي

التي تتلوَّى في حفر البيوت،

متى أَنطلِقُ من القَوس

ويُدمي سَهمي معاني رومانتيكيَّةً تَضيع منِّي؛

كي أُجاهِرَ –بكامل وَعيي، وفوقَ رؤوس الأشهادِ–

أنَّني خَطَفتني التَّجربةُ يا رفاقي الليليِّين.

5

يَدورُ اللَّيلُ ويتكوَّر،

ولا يُوقِفُ سُعالَه شيءٌ،

ولا يزالُ العاشِقان الإيطاليّان

في خصامٍ أَربَكَني مُدَّة ثوانٍ،

وعلا صراخُهما لشَوقٍ غاب عنهما..

هل أخرج من غُرفةٍ

مُلِئَت حوائِطُها برسوم «ماتيس»

إلى شوارع حظر التِّجوال،

وأشرح للضُّبَّاط والعساكر في الكمائن التي ستُصادِفُني

حتَّى أَصِلَ إلى جاردن سيتي:

أن ثمَّة عاشِقَيْن إيطاليَّين في خصامٍ،

ووَجَبَت عليَّ المغادَرةُ كجاسوسٍ،

بودِّي أن أنقل لهما مَصلًا،

ما هو إلَّا مُفردَةٌ* في مُتحَفِ اللَّيل لشوقِ الأرض

قاطِبَةً..

ليكبرا برفقة الجمال

ويِهرُبَا من مطاردات البوليس والأجهزة السِّريَّة،

مُرورًا بصقلِّيَّة على طريقة «چيمس بوند»،

وتُحقَنُ أَورِدَتُهما به؛

ليَهْنَئَا في هذه الليالي الرديئة ببعضهما بعضًا

في سرير الحُبِّ المصنوع في ١٩٧٠.

ذلك السرير الحديدي الذي انتقل من مدينَةٍ إلى قرية،

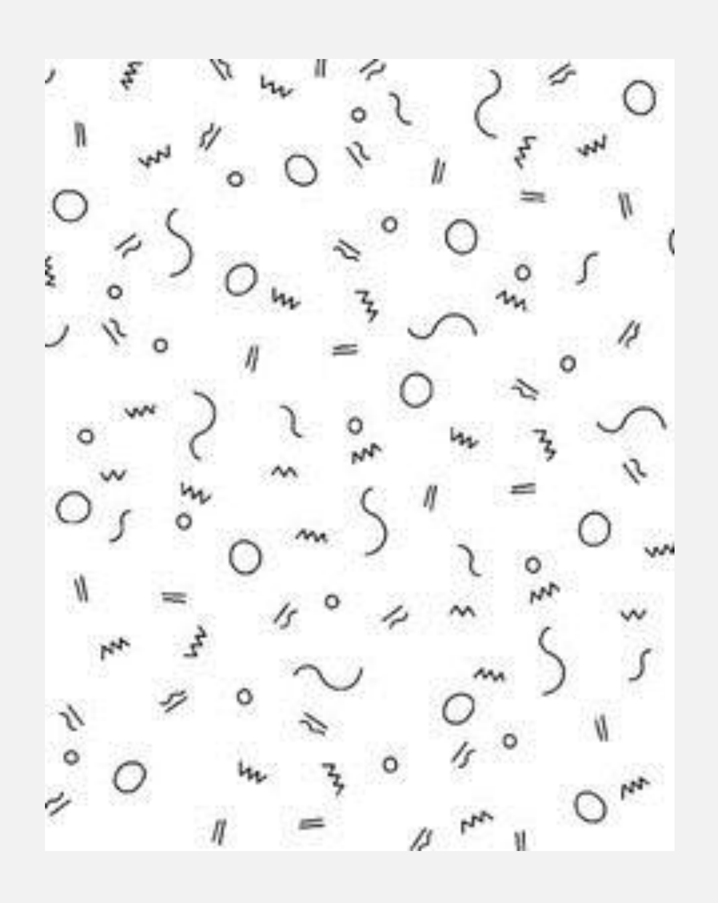
ومن قرية إلى مدينة،

وجميع العُشَّاق الصِّغار يُبلِغونَه السَّلام

وهم سُكارى لَيلَ نَهارَ على النَّواصي وفي الحانات.

---

* مُفرَدَة في مُتحَف الليل: عنوانُ القِسم الثَّاني.



6

أنا ضائِعٌ كالأطفالِ تمامًا،

والشوارع بلا إنْسٍ أو جان.

ثمَّة كلابُ شوارِعَ تنبَحُ

وقِططٌ طيِّبةٌ تَموءُ،

في هذه الحال أنحازُ لمشاعِرِ القِطَطِ

وأَنفرُ من الكلاب؛

لِكَوني بلا رفيقةٍ ووحيد تمامًا. أين أذهب.

ليس بودِّي أن أقِفَ أمام بوَّابةٍ لعمارةٍ نائِمةٍ

على مقربة من فندق سميراميس.

هل أسقط في نهر النيل كأنَّني أسبح لروحٍ بعيدة،

لا أعرف مَن هي أصلًا ولا لونَ وردةِ بابِها التَّاسِعِ،

وبماذا أَصِفُ لها عطشي لمسامَرَةِ الشَّيطان الرجيم.

7

ما الَّذي أتمنَّاه؟ بودِّي أن أعرف.

كُلَّ يومٍ أستيقظ في اللَّيل وأُردِّدُ نفسَ الأُغنيَةِ..

ما الذي أتمناه؟ بودِّي أن أَعرِفَ.

هل من حِسٍّ لم أُجرِّبه أو لقاءٍ جَسديٍّ بامرأةٍ تُحبُّني..

أعترفُ، أنا رفيقُ الأَرصِفَةِ وطاولات كافيهات آخِرِ اللَّيل

أَنَّني سَئِمتُ رَواحًا ومَجيئًا بين غُرفَةٍ في سُكْنَى جَماعِيَّةٍ وشارِعٍ..

هل حان الوقتُ بأن تُملأَ حَقيبتي بِبنطالَيْن وتي شيرت أحمر،

وكُتبٍ بحَجمِ كَفِّ اليَدِ، ومِطواةٍ؛

لأَرْكُضَ باتِّجاه رفاقي المشَرَّدين الَّذين يُلوِّحون لي

من وراءِ الجِبالِ السَّماويَّةِ، وتحت الكَباري،

وفوق أرصِفَةِ النَّواصي،

وفي بُيوتٍ يُذكَرُ فيها اسمُ اللهِ؟

هل أنا فِعلًا مُعاقٌ وعاجِزٌ،

أَم أَصدُقُكُم القَولَ:

لَيسَ بإمكاني اللَّحاقُ بِمَوكِبِهم وجَيشِه الحامي الأَمينِ

لو ظَلَّ الأَسى يَأكُلُني وَحيدًا؟

وُلِدتُ بين التُّجَّارِ في قَريةٍ بَعيدةٍ،

وحَلُمتُ بِأنَّني بَحَّارٌ فَوقَ سَطحِ سَفينَةٍ وَرقيَّةٍ...

كُنتُ بين المساءِ والسَّهرَةِ أَسمَعُ موسيقى «إنجما»،

وتُحرِّكُها يداي الآثِمتان بِعُنفٍ في مياه الأَواني

البلاستيكيَّةِ...

كان الجَميعُ في أَواخِرِ السَّبعينيَّات

يَحلمُ بالفَرارِ من أَلسِنَةِ النَّاسِ وبيوتٍ من الطِّينِ

بالسِّيرَةِ الطَّيِّبَة وجَنْيِ المال

من أَجلِ بناءِ بُيوتٍ بالطُّوبِ الأَحمرِ،

وظَلَّ أَبي يُردِّدُ نَصائِحَ لي بالحُسنَيَيْن،

حتَّى كَبرتُ وصِرتُ مُراهِقًا أَقرأُ الشِّعرَ المعاصِرَ،

ومُنذُ ذلك الحينِ اكتشفتُ روحًا ضَعيفَةً بداخلي

أمامَ تِلكَ الألفاظِ الَّتي تَتكلَّم عن الفَرحِ والخُسرانِ...

ولم أَجِدْ عَلى أَلْسِنَةِ رِفاقِ الخَيالِ المشرَّدين،

ويَتَامَى الحياةِ في غُرَفِ المعيشَةِ والسَّكَنِ الجَماعِيِّ

مَعنًى لما صَدَّعَ أَبي به رأسي؛

فَليسَ للسِّيرَةِ الطيبة وجَنْيِ المال من أجل بناءِ بيوتٍ

بالطُّوبِ الأحمر

أفْضَلِيَّةٌ عِنْدِي مثل ريشٍ لطائرٍ قَرأتُ عنه في قَصيدَةٍ

لشاعِرَةٍ تَسكُنُ مُخيِّلَتي..

مُجرَّد شاعِرَةٍ لن يَلتَفِتَ لها كَتَبَةُ التَّاريخ الأكاديمِيِّين..

مجرَّد شاعِرَةٍ لم تَمُتْ مُنتَحِرَةً بالغاز،

بل بِفُقدانِ عاشِقِها العظيم...

ويُقال إنَّها قَبلَ أن تَذبُلَ كالوَردَةِ وتَموتَ

أَحاطَت أَكوامٌ من الرِّيشِ لِسنواتٍ

بَيتًا كانت مُتيَّمَةً بداخِلِه،

وعاشِقَةً لِرَجُلٍ يَعملُ بَحّارًا فوق سَطحِ سَفينةٍ وَرقيَّةٍ...

ويراها من رحلَةٍ لأُخرى كُلَّما أَتى،

وأَنارَت طَريقَه إلى عِناقٍ شَبيهٍ بالحلويّاتِ القويَّة...

ظَلَّت المرأةُ تحكي في أحدَ عَشَرَ سَطرًا أو أَكثرَ

عن يَدِه اليُسرى التي أَدْمَت سِلسلَةَ ظَهْرِها...

لا أَذكُر لماذا بَكيتُ كَصبيٍّ مُراهِقٍ

عندما قالَت: خُذني يا اللهُ،

إنَّني أَتألَّمُ من كُلِّ هذا الصَّفاءِ الَّذي يَشمَلُني

ولا يدومُ سِوى لأيَّامٍ

كُلَّما لمسَتْني عاطِفَةٌ حارَّةٌ بيني وبين بحّارٍ وَقِحٍ وصُعلوكٍ

فوق سَطحِ سَفينةٍ ورقيَّة...

ثُمَّ تُقرِّرُ -آسِفَةً-:

لقد مَنَحني ريشًا لطائِرٍ،

ولَيس مَسموحًا لي الطَّيرانُ خَلْفَه

وهو في البَحرِ وأنا بين السُّحُبِ الملوَّنَةِ الزَّرقاءِ؛

لأُرِيَه بقيَّةَ كُنوزي وريشاتي الإيروتيكيَّة،

في تلك القِطعَةِ من اللَّيلِ الَّتي أكونُ فيها وحيدةً

وبلا أُغنيتي المفضَّلة «هوتيل كاليفورنيا»؛

لأسمعَ صَوتَهُ فَوقَ سَطحِ سَفينَةٍ وَرقيَّةٍ

غارِقَةٍ في سَريري

بِرُفقَةِ فَريقٍ من المغنِّيين يَصدَحُ لي:

« He said, We haven't had that

spirit here

..since1969»...

وعن يمينِه وعن شمالِه –وكلانا عاريانِ– أَلعَنُ خَيمةَ

الجِنْسِ،

وسَفينَتَه الوَرقيَّة..

وربَّما أيضًا لِيفهمَ من تِلقاءِ نَفسِه

أنَّ وَردةَ التَّخييلِ الذَّاتيِّ،

وسيميوطيقاه العَجيبةَ، وأنا:

ذَواتُ سيقان وأوراقٍ هَشَّةٍ.. هَشَّةٍ.. هَشَّة...

لكنَّنا قَويَّاتُ الجُذورِ يا رفاقي اللَّيليِّين،

ورفاقَ عاشِقي العَظيم.



8

بين نَواصٍ لإشارات المرور

تَقِفُ قِطعةٌ من الليل إلى جانبي،

وليس في الأمرِ مُجونٌ

لشاعِرٍ من تيَّار سنة تسعين؛

فبمجرَّد أن أَظلَمَت الكهرباءُ،

وظهرت رَسمةٌ لوجهٍ مفقودٍ

بين أضواء العَرَبات المسرِعَة على جانِبَي الطَّريق،

قلت: ثمَّة شيءٌ من خيالٍ يتوالَدُ في رأسي،

ولا يَصِحُّ لامرئٍ عاقِلٍ أن يهتزَّ كأنَّه في غَثيانٍ لروحٍ

حُبلَى.

في تلك اللحظاتِ التي بِلا دراما..

انقسَمتُ بين أفراحِ المشاهَدَةِ

وعروسِ الليل في زِيِّها الأبيض المضخَّم بحديقةٍ من

الوُرودِ

يُقال لها عنِّي، وتحديدًا من جُزئي السَّاكِن المعاقِ:

أنتِ قَصيدةٌ طاوِيَةٌ بين يَدَيْ عازِفٍ مَلَّ صَلواتِ

الخَيّام.

9

بَحرٌ أمام عينيَّ الحزينتين

لاعتيادِهما على النقصان.

بَحرٌ بداخل روحي

ولن يمرَّ منه سواي.

بَحرٌ يخصُّني، وحولي غَرْقَى

بودِّهم النَّجاةُ من القاع

دون لَكماتِ قَبضتي

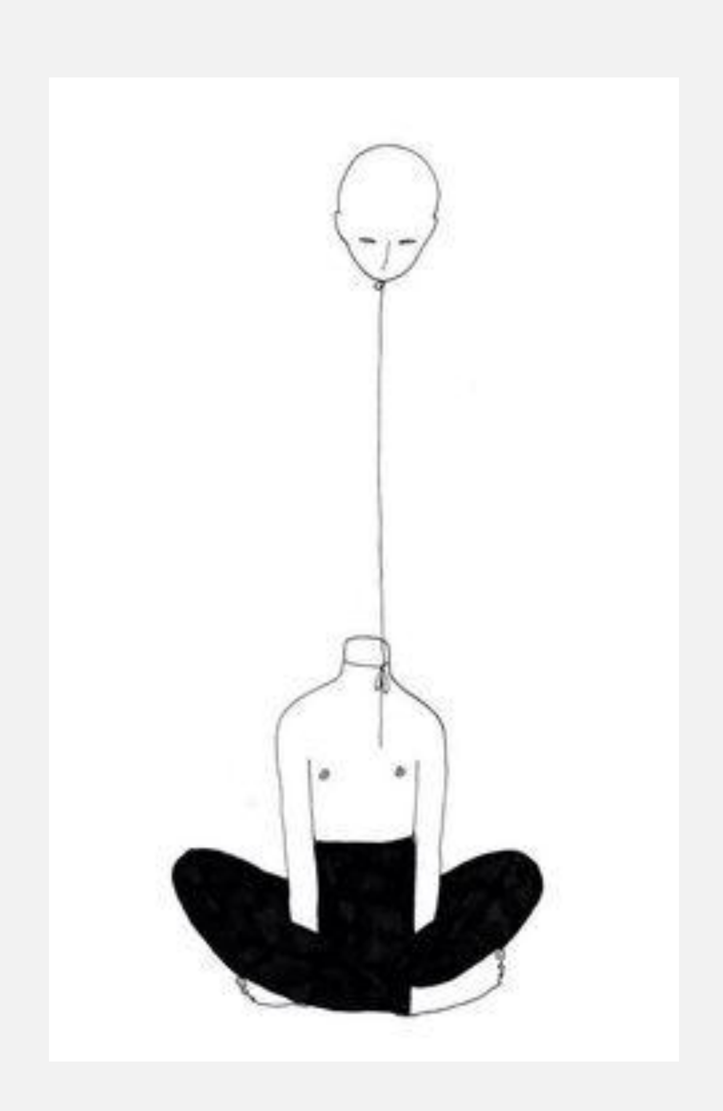
والقصصِ المتعفِّنة بداخلي.

بَحرٌ من الفراشات

لوردَة الله الَّتي خلقها بحجمِ الآلام.

بَحرٌ من الوداع

يا سيميوطيقايَ العجيبةَ ووردةَ التَّخييلِ الذَّاتي.



10

يُقال عن الأهواء

إنها هوامِشُ تَصلحُ لِعُصابٍ جَماعيٍّ

في جلسات السَّمَر بين فريقَيْن،

بلا خبرة تَراكُميَّةٍ

في ما يقال من أَحدِهما كَمُستَمعٍ

ليبدو الآخرُ كمُنصِتٍ..

كأنَّهما سِرْبان من الطُّيورِ المهاجِرَة

جاءَا من قارَّتَيْن مختلفَتَيْن،

ووَقَفَا في نفس النقطة

هُنا فوقَ تُرابِ الحدودِ

لبلدٍ مُكتَشَفٍ،

وصار كَلامُهما في لحظةِ اندماجٍ

صَوتًا واحِدًا لرحلَةٍ قصيرةٍ..

هُما بداخِلها..

مُجرَّدُ جَمعٍ غفيرٍ من السُّيَّاح

فوقَ الأسلاك لِنُقطَةٍ بعيدَة،

في مُخيِّلَةِ سينمائيٍّ، صالحِةٍ لكادر تَتقاسَمُه عمائِرُ

وخيامٌ بالتَّساوي.

11

جاءَ من نيويورك إلى المدينةِ الصَّديقَةِ

باحِثًا عمَّا ظَنَّ أنَه دِكَّةٌ لَيليَّةٌ في بيتٍ مُستَأجَرٍ،

وحَظِيَ بغرفَةٍ ذاتِ دولابٍ في الحائِطِ،

ويُطِلُّ شُبَّاكُها على قَصرٍ لِزعيمِ حزبِ الوفد،

وأصواتٍ لعائِلَةِ بَوَّابٍ من جنوبِ مِصرَ

تَسكُنُ في بَدروم.

لم يَكُن «براين سكيستن»

سوى شابٍّ له روحٌ طَيِّبَةٌ ووحيدَةٌ

يَهرُبُ منها بالكَلامِ

عن عِلمِ الاجتماعِ السِّياسيِّ والفُكاهَة،

وحُلمِه بأن يجني المالَ

ليَتَقاعدَ في سِنِّ الأَربعين عن العَمَلِ،

ويَتفرَّغَ لِلحُبِّ

والتَّجوُّلِ في أنحاءِ المكسيك،

كما يَفعَلُ بِشجاعَةِ سائِقٍ لِتاكسي

في ليالي حَظرِ التِّجوال.

عاد «براين» إلى أَدراجِه

في حِضنِ أَبوَيْه أو على مَقربَةٍ مِنهما،

وتوقَّفَ عن الحديثِ عن أيِّ شَيءٍ يَخصُّ الأَحلامَ

في رَسائِله القَصيرَةِ،

وبَدَا يائِسًا تمامًا في نيويورك،

كَرجُلٍ لِزحامٍ

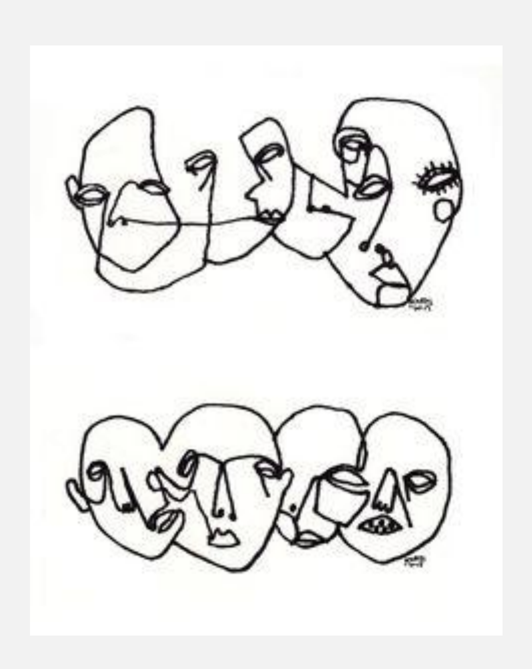
تُطارِدُه دِكَّةٌ لَيليَّةٌ في بيتٍ مُستَأجَرٍ،

وكان اسمُها مجَهولًا،

ولا يُردِّدُه في جلساتِ السَّمَر إلَّا مُشفَّرًا..

كَأنْ يُنادي عَليها فَجأةً

بِلَفظٍ يَصِحُّ إطلاقُه على الحُبِّ النَّاقِص.



12

كُنَّا جمعًا من الرِّجال والنساءِ،

غَلَبَنا الحزنُ الَّذي لا يُمحَى إلَّا باللَّعِب

بين التَّذكُّر والنِّسيان.

كُنَّا عائِدِين من جِنازةٍ لصديقٍ

لم يَمُتْ في مَجزرَةٍ

أو مُشادَّةٍ في كَمين،

واقترحَت چوليانا الجَريَ

بين نواصٍ لشوارعِ الحَيِّ النَّظيف.

تأخَّر عَنَّا في هذا المارثونِ الليلي

چينارو أستاذُ التَّاريخِ المعاصر

بجانِبِ فتاةٍ عَرجاءَ تُدعَى رِچينيا، عاشِقَةُ الرِّجال،

وتَعمَلُ مُصوِّرَةً في صُحُف اليَسار،

ثم بَدَآ في الصُّراخ:

«انتظرونا يا رفاق... انتظرونا يا رفاق...

انتظروناااااا»،

وكان صدى صَوتِهِما العالي

يَسبِقُنا كنُقطَةٍ افتراضيَّةٍ للوصول إلى هدفٍ..

يَجهَلُه الجميعُ، حتى صاحِبا النِّداء،

وقد داسَت أقدامُنا –المتعجِّلَةُ دومًا لمحْوِ الحزن–

تلك الوُرودَ الذَّابِلَة التي رَشَقانا بها من الخلف

وكأنَّهما جالِسان في بلكونة «جرامشي» السماوية..

وبَدَوْنا –للأسف– في نظرهما مجرَّدَ سَفَلة أوغادٍ

لا يَرَوا مآسيَ الأَبرياءِ.

13

أيُّ شيءٍ أُجيدُه هو أورجازمي،

ويَجِبُ عليَّ الاستمرارُ في القراءة عنه.

أفتح الكِتابَ

وأَجلِسُ كَروحٍ هائِمَةٍ

لالتقاطه من بين السُّطور والهوامش.

نعم، يا رِفاقي اللَّيليِّين،

أورجازمي الذي يتجسَّد في مُدَّةٍ قصيرة،

هي إحدى عشرة دقيقة،

بالتَّنقُّل السريع لِعَينيّ،

حتى بين أوردته وفَروَةِ الرَّأس.

ها أنا ذا قد صِرتُ طَيفَه الخَفيَّ..

يسمعني ولا أَسمَعُه،

يراني ولا أراه،

يلمسني ولا ألمسه.

هل أجلسُ هكذا في الميدان

الَّذي لم يَعُدْ مُزدَحِمًا بالمسافرين،

وأُخاطِبُه كأخٍ كريم كانت بيننا مَودَّة عميقةٌ..

صارت بعيدةً الآن عن أَنْفَيْنا؛

فلقد اعتاد هذا الأَحمقُ المغرورُ

أنْ يَمُدَّ أرنبةَ أنفه المثيرة لمصافحتي

في ليالي حظر التِّجوال،

وكنتُ أُقلِّدُه

كمعنى لآيةٍ مكسورة بين ضلوعي،

وأعتدلُ في وقفتي

مُشتاقًا بأن يَشطُرَني إلى نِصفَيْن

بِنظرةٍ من عينيه اللَّتَيْن لملاكَةٍ من دمشق...

- هل تُحبُّ العُنفَ؟
- نعم.
- لماذا لا تَذهبُ إلى هناك بداخل الحلبة؟
- لا أعرف.
- لمن هذه الصَّورة؟
- لأمِّي التي في مقابر القرية.

14

كَخَطأ شائعٍ

بين الأَلِف اللَّيِّنة والياء المنقوطة

في رسالاتٍ قديمة..

كعطَسةٍ مُعتادَةٍ

من فوق سريرٍ لِرجُلٍ

في بَنسيون وسُكْنَى جَماعِيَّةٍ

بعد التفكير في الحُبِّ..

كرغبةٍ في اللحس لحوافِّ امرأةٍ

جالِسَةٍ أمامي فوق شاشة «الآيباد»..

كبِيادَةٍ لجُنديٍّ في رسمَةٍ تُمجِّدُه

بداخل مُتحَفٍ للحرب

بعد البكاءِ الطويلِ لأولادِهِ..

لأَصِفَ ما سأفعله خارجَ المجازِ

عندما أفتَحُ عينيَّ بعد نومٍ طَويلٍ،

وأتساءَلُ أينَ حبيبتي المثقَّفَة الحَسناء

بأسنانها الذَّهبيَّةِ وهي تقرأ كتابًا

عن تعاليم المسيح ومريم العذراء.

15

عَلى طَريقَةِ «أونجاريتِي»،

كان اسمه «نيقولا»،

سليلُ البدو الرُّحَّل،

الَّذي لا يُجيدُ التَّحدُّثَ بطَلاقَةٍ سوى مع الغرباء،

وتحديدًا في مترو المدينَةِ الصَّديقَةِ،

وكانت تُوحي له تَراكيبُ آخِرِ اللَّيلِ

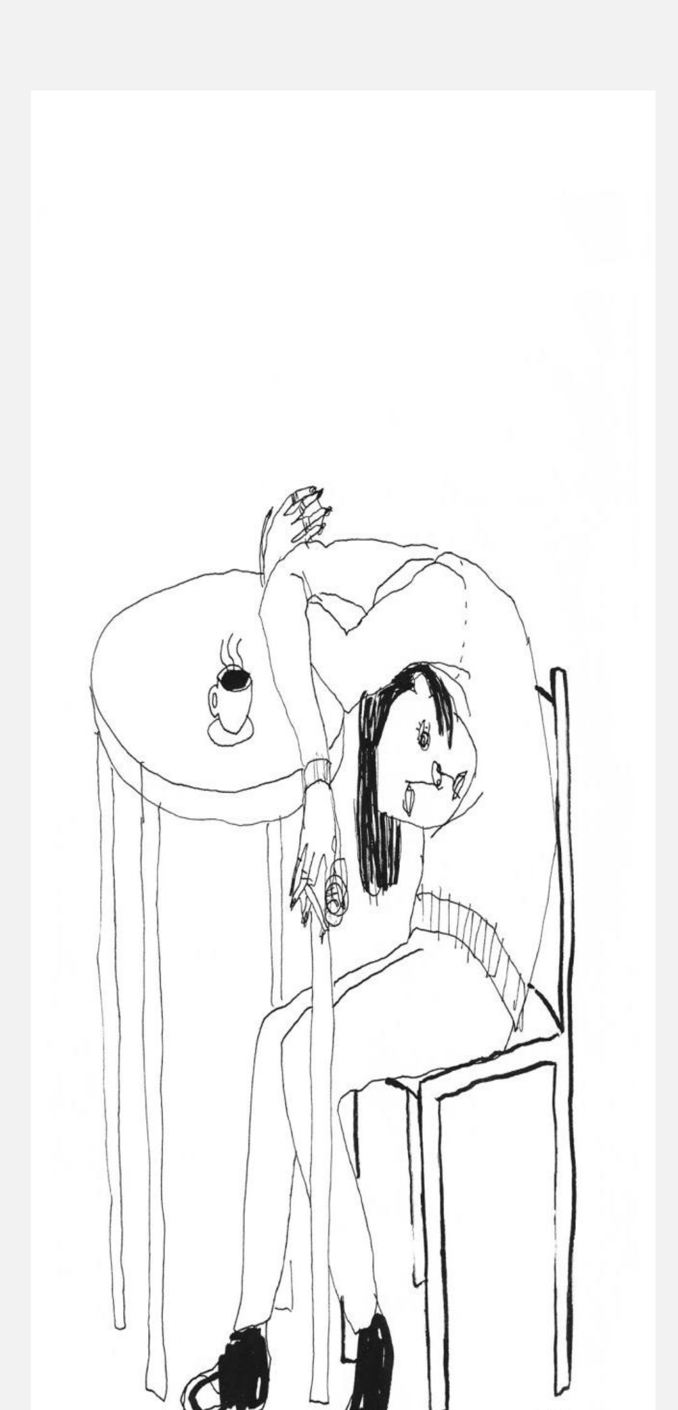
بِقصصٍ عن كائِنٍ خُرافيٍّ مُتضخِّمِ الوجدان،

ومُقيمٍ بين ضُلوعِه..

ولا يَتوانى عن طَمْأنَتِه أنه بِخَيرٍ،

ولا يزال حَيًّا يُرزَقُ،

وأنَّ قَدَميْه لا تَزالان خارِجَ المقبَرةِ.



16

تَلعبُ معي الأَيَّامُ،

وأظلُّ مَكتومًا بين يَدَيْها

حتَّى أَدخُلَ في حالٍ من الضَّحكِ الهستيريِّ،

بينما أَشعُرُ بأنَّني ضائِعٌ،

وفي انتظارِ فَتاةٍ لم تَأتِ كالعادَة..

كأنَّني قِردٌ عَجوزٌ

استطعتُ -بِمعجِزَةٍ استثنائِيَّةٍ-

أَنْ أَلضُمَ إِبرتي في خَيطِ أُنثاي

البادِيَةِ مِثل قَمَرِ السَّماء

فَوقَ شاشَةِ قناة «إنترناشيونال چيوجرافيك» الدَّوليَّة،

ونَسيتُ حِزامَ بِنطالي الچينز،

وعُدتُ لارتدائِه على عَجَلٍ..

ثُمَّ صرختُ فجأةً

من طُرُقَةِ البَنسيون والسَّكَنِ الجَماعِيِّ إلى البابِ:

«شَكْلي باحِبّ»،

وعلى الفَورِ وَدَّعتُها بِقُبلَةٍ سريعةٍ،

ثم ركبتُ تاكسي

وتحدَّثتُ عَمَّا لا يَعملُ بداخلي بِعُنفٍ لِجاري الشَّابِّ،

وأنَّني كان لا بُدَّ ألَّا أُغادِرَ

وأَظَلَّ بجانِبِ قِردَةٍ مُشعِرَةٍ وعارِيَةٍ.

أَلَيسَ من الضَّروريِّ لِشخصٍ حسَّاسٍ وجِلْفٍ مثلي

أن تَكونَ لِأَناهُ الهَشَّةِ سَطحٌ؛

فالبَشَرُ المعاصِرون لا يزالون عميانًا

عن رُؤيَةِ تَرجَمَةٍ لِسُرعَةِ الوقوعِ في اللَّذَّةِ

فَوقَ شاشَةِ عَرضٍ لما يدورُ بداخِلِ وَجهٍ حزين؛

مَثَلًا، كَيفَ يَقرأُ ما بداخِلِ القِرْدَةِ

بِنَفسِ الدَّرَجَةِ الَّتي يُترجِمُ بها فَرحَ القِردِ بالقَنْصِ؟

لماذا لا يَعتَقِدُ بأنَّ هُناكَ ما هو أَجملُ

من أن تَبدو القِرْدَةُ بين يَدَيْه كالجُثَّةِ؟

أَلَا يُمكِنُ أَنْ يَصيحَا مَعًا

ولَيس مُهمًّا لِمَنْ البُندقيَّة والتَّصويبُ؟

أَلم يَكُن لَهُما قَلبٌ واحِدٌ وروحٌ كَبيرةٌ...

عَثَرَا بهما على الحُبِّ؟...

لقد وَقَعا في فَخِّ الارتِباكِ على ما أَظُنُّ

يا عزيزي الله، ورَبِّ القرود.

17

مَن أنا في ليالي حَظْرِ التِّجوال..

من أنا؟ هل مِن مُجيبٍ:

مَتى، وكَيفَ دَخلتُ صيدليَّةَ اللَّيلِ

وقُلتُ للعامِلِ في قِسمِ مُستَحضَراتِ التَّجميلِ:

بِودِّي شِراءُ نَهدَيْن لِطفلٍ

كأنَّهما –مَعًا– عَجينَةُ العالَمِ

الَّتي تَتشكَّلُ بها الكَوابيسُ والأَحلامُ

واشتِراكاتُ أَلعابِ البورنو في دهاليزِ الشَّبَكَةِ

العَنكبوتيَّةِ.

لماذا لا يَدورُ في خَيالي

سِوى تلكَ المرأَةِ التي أَحبَبتُ –من طَرَفٍ واحد–

لأيَّامٍ في باب اللُّوقِ؟

لماذا صِرتُ مجنونًا ومَريضًا هَكذا يا أُختاهُ؟...

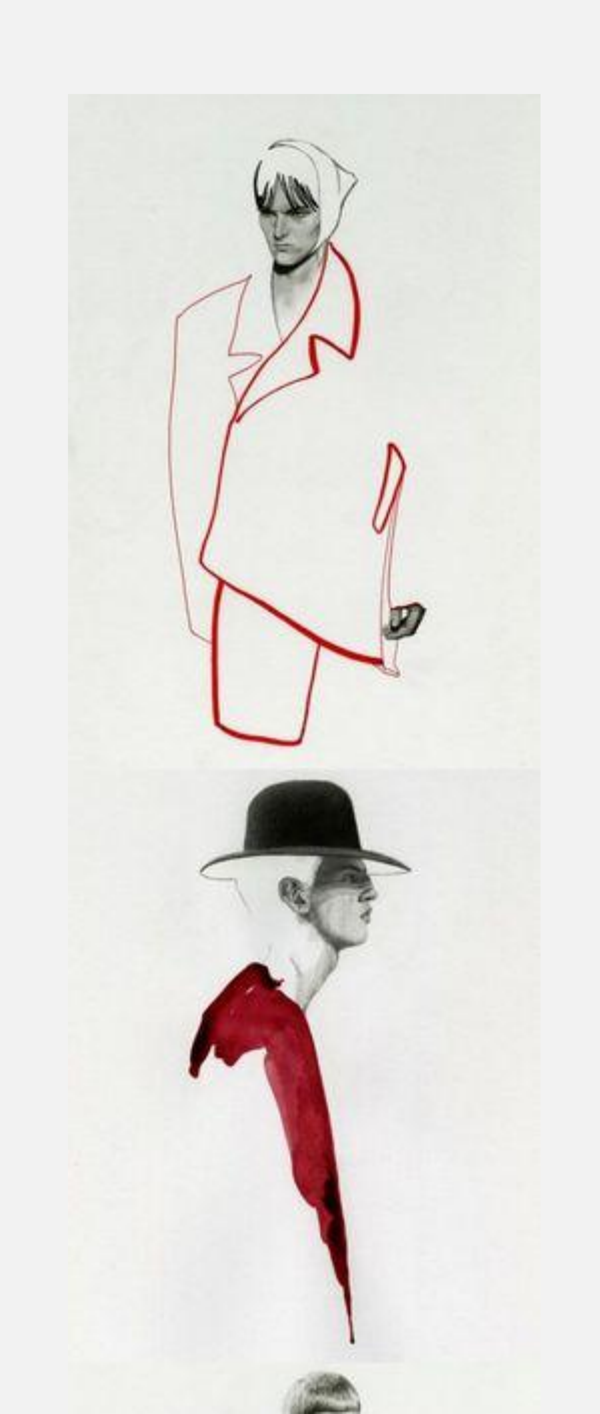
لقد سَيطَرَ البُؤسُ على رُوحي

الَّتي تَتضاءَلُ أَمامَكِ،

في كُلِّ مَرَّةٍ،

أَتخيَّلُ بأنَّ العالَمَ لم يَكُنْ سِوى رسالَةٍ مِنكِ..

هل أَنتِ حَقًّا صَديقَتي في هذا البَلَد؟



18

فَقدتُ تليفوني المحمولَ في الزِّحام..

يا لَشقائي من دونِه؛

أَجَل.. كُنتُ أَتودَّدُ به إلى النَّاسِ

مُحاطًا بالكَذِب،

وأُحرِّكُ بأصابعي

أَرقامًا لِمَوْتَى

يَتهيَّؤون لمراسِمِ الدَّفنِ الجَماعِيَّة.

19

خَرجتُ منذ ثَوانٍ

من غُرفَةٍ في سُكْنَى جَماعِيَّةٍ،

وفَعلتُ كُلَّ ما هو شَبيهٌ بِقصيدَةِ شِعْرٍ؛

نَهضتُ من فِراشي

ومَسحتُ قِطعَةً من ذاكِرَتي

بِفِعلِ الحَلويَّاتِ القَويَّةِ، تَحديدًا

تِلكَ التَّفاصيل الَّتي تُدمِيني

بينما أَقومُ بالفِعلِ الثَّوريِّ

لالتقاطِ بَقايا سيجارَةٍ مُطفَأَةٍ بين أَصابِعي..

كأنَّها لُغةٌ قَديمةٌ تَتخلَّصُ مِنِّي،

وأَتَخلَّصُ مِنها في سَلَّةِ المُهمَلات،

ثُمَّ أَدورُ حَولَ نَفسي مُحدِّثًا زَميلَ الغُرفَةِ

أنَّني ذاهِبٌ لامتِداحِ بِدايَةِ فَصلِ البَرِدِ،

بِلا مُقدِّماتٍ.

كَم من مَدَّاحين لِغَرَضٍ غَيرِ مُطابِقٍ للأَحلامِ

فَعلوها مِن قَبْلُ.

سَأدنو من وَهْمي

بالجُلوسِ فَوقَ رَصيفٍ لِشارِعٍ جانِبيٍّ

ربَّما تَجسَّدَ أَمامي، وقال لي الشِّتاء:

أَنتَ حَبيبي؛ فلا تَبْتَئِسْ،

وظَنَّ بي خَيرًا

حتَّى لو مَرَّت أَيَّامي في مَوكبٍ لِلشَّقاء،

أَليسَ لديكَ رُوحٌ وقَلبٌ!

20

بِودِّي قَولُ كَلماتٍ بَسيطَةٍ عَنِّي...

كَأنْ أَكتبُ مجازًا

عن جُوعي لِشَفَتَيْن في رَسمَةٍ لِفنَّانٍ مُعاصِرٍ،

وإذا بامرَأَةٍ تَخرجُ من اللَّوحَةِ...

كَأنَّ الأَمرَ مُعتادٌ، ويَخلو من السِّحر،

ولمزيدٍ من كَسْرِ الإيهامِ تَتساءَلُ:

أَلَا تَعرِفُ مَطعَمًا بالقُربِ من هُنا؛

بودِّي أَنْ آكُلَ سَندويتش من الفلافِلِ،

وأُدخِّنَ سيجارَةً لايت.

21

ربَّما هُما عائِدان مَعًا من سَهرةٍ،

أو كانا يَرمِيان نَظرةً صَباحيَّةً

على العالَمِ بِخارِجِ الجُدرانِ،

أَشُمُّ مِنهما رائِحَةً لابْتِهاجٍ لا يُصادِفني

في مثلِ هَذه الأَيَّامِ...

أَظنُّهُما عاشِقَيْن،

وقَد فرَغا للتَّوِّ من طَعْنٍ وقُبُلاتٍ،

وجاءَا إلى مَقهى الفُقراءِ

لِتُدخِّنَ المرأةُ الشَّعبيَّةُ النارجيلَةَ،

ويَجلِسُ رَجُلُها الطَّيِّبُ

أَمامَ لَوحَتِه الضَّاحِكَةِ

بِحُبٍّ خالٍ من أَحقادِ العُمران.

22

هو شابٌّ أَجنبيٌّ،

هي شابَّةٌ أَجنبيَّةٌ،

كِلاهما غَيرُ مُطابِقٍ لمواصَفاتِ الآخَرِ...

قالا لي في اخْتصارٍ للتَّشَكِّي.

أَنظُرُ إلَيهِما تَحتَ سَقفٍ واحِدٍ

ولا تَزالُ هَذه البُقعَةُ تَتَّسِعُ بَينَهما

بِنفس الدَّرجَةِ الَّتي يِنْجُوانِ مِنها..

هي كَرِسالَةٍ... هو كَرسولٍ،

وقد اخْتَلَطا في غَيمَةٍ

بِداخلِ قَلبِ المدينَةِ الصَّديقَةِ التي أَحبَّاها

كَأَنَّهما غريبان حَضَرَا إلى القاهرة؛

ليلتقيا عند جروبي..

ويَقعانِ في الحُبِّ من أَوَّلِ نظرةٍ

كَما في أَفلامِ الشَّرقِ الحَزين.

23

ثمَّة إحساسٌ خَفيفٌ بالتَّعاسَةِ؛

لَيسَ لَديَّ شَيءٌ لأقولَهُ

لِكلِّ تلكَ الأَصواتِ المستَعارَةِ

الَّتي تُقيمُ بِداخلي.

لماذا لا أُسْكِتُها صَوتًا صوتًا،

وأَبحثُ عن صَوتي؟

أنا الطَّائِرُ الهارِبُ

من قَفَصِ البَنسيون والسَّكَنِ الجَماعِيِّ

إلى وَجبَةِ أُرزٍ ساخِنَةٍ..

أُنصِّبُ نَفسي في هذا المساءِ الحَزينِ

مَقهًى صغيرًا لأَرامِلِ «ماركس»*.

---

* أُنصِّب نَفسي مقهًى صغيرًا لأَرامِلِ ماركس: إشارة إلى عام ٢٠١٥، سنة صدور «أرامِل ماركس» عن دار شرقيَّات.

24

لِمَاذا لا تُهاجِرُ يا أخي،

وتَلُفُّ شالًا أَبيضَ

حَولَ رُوحِكَ البَيضاءِ؛

حَتَّى تَنجُوَ من التَّلَفِ

مِثل امْرأَةٍ شَهيَّةٍ أَكَلَها النُّقصانُ؟!

غامِرْ يا أخي،

واذْهَبْ إلى أَرضٍ أُخرى؛

فأنتَ بِحاجَةٍ لِكَسْبِ النُّقودِ،

وبِحاجَةٍ أَيضًا للنِّسيان..

فَلَن يَخسَرَ العالَمُ شيئًا

لو صِرتَ قَوَّادًا

مِثلَ كاتِبِي مقالاتِ النفاق؛

لِترتاحَ مِن أَلَمِ الاكتمالِ،

ولا تَشْغَلَنَّ بالَكَ بِأنَّ للكَمانِ صَوتًا

يَتْبَعُكَ بين جِدارٍ لحائِطٍ وفَتاةٍ عَجوزٍ،

تُجيدُ أَلَمَ المغادَرَةِ دَومًا

إلى عُلبَةِ ذِكرياتِ رَجُلٍ آخرَ

ماتَ مُنذُ سنينَ،

ولا يَراها، ولا تَراهُ.

25

صِرتُ ناعِمًا

كأي قِطعَة من اللَّيلِ،

وبإمكاني أَنْ أَكونَ أَيَّ شَيءٍ أَودُّه،

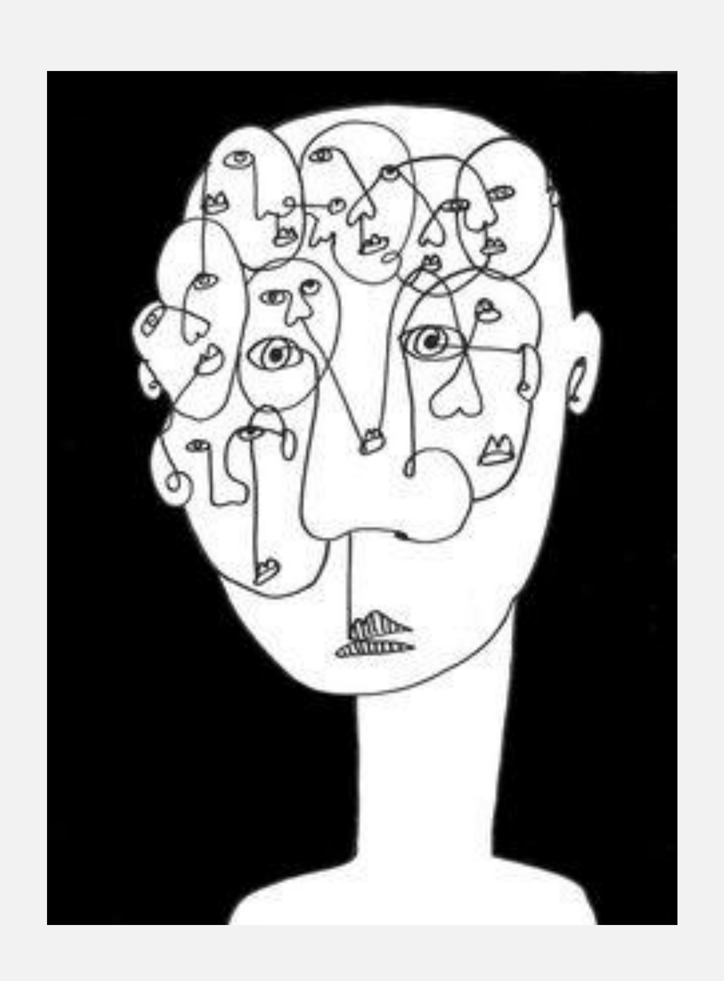
وحَلمتُ به...

كَأنْ أَكونَ مُجرَّدَ صَوتٍ للجَحيمِ،

وبِرُفقَتي نايٌ

لِأعزِفَ لحَنًا قاسِيًا ورومانتيكيًّا

على لِسانِ عاشِقَيْن صَغيرَيْن.



26

لماذا لا أُجَنُّ وأَنزلُ الآنَ

وأَقِفُ تَحتَ بَيتِ ميمي*،

تحديدًا، في ذلك الاتِّجاه المُطِلِّ

على دُكَّانَةِ مُستحضَراتِ التَّجميلِ؛

لأبدو مُنشَغِلًا

بالفُرجَةِ على صورَةٍ عارِيَةٍ لـ «كلوديا كاردينالي»

أمامَ الڤاترينة...

كأنَّني عاشِقٌ صَغيرٌ

في طَريقِه لموعدٍ مع نِصفِ غَرامٍ...

لم أَنَلْ مِنه سِوى قِطعَةٍ من خَيالٍ

يَتعذَّرُ عليَّ بِأنْ أَصهَرَها لِتظلَّ قَصائدي خَشِنَةً،

وبِلا أَلفاظٍ لَيِّنَةٍ؛

لَعلِّي أُشفَى من حُبِّ تمساحَةٍ بَدينَةٍ

في نُزهَةٍ قَصيرَةٍ

بالقُربِ من مَيدانٍ مُزدَحِمٍ بالمسافرين،

وأَشتري لها عُبوَةً من أَحمرِ الشِّفاهِ

كَأوَّلِ امرأَةٍ أُصادِفُها وتَخطِفُني التَّجرِبَةُ

في غُرفَةٍ لِحُبٍّ طارئٍ على وَشكِ الزَّوال...

كأنَّني مَريضٌ بالاختفاءِ،

وهي ابْنَةٌ للأَرَقِ المزْمِنِ.

لَيسَ أَمامي من بَديلٍ

سِوَى تَحريكِ قَدميَّ بِبُطءٍ وَتثاقُلٍ...

أنا مُجرَّدُ رَجلٍ أَحمقَ

خارجٍ من العُزلَة

لِلقاءِ وَردَةِ التَّخييلِ الذَّاتي وسيميوطيقاي العَجيبَةِ

الَّتي مَدَّت لي يَدَ العَوْنِ

وسَانَدَتني عُمرًا بأَكمَلِه

بين أربعَةِ جُدرانٍ لِكَهفٍ مُظلِمٍ.

أَليسَ من الإنصافِ الصُّعودُ إلى البابِ

وسُؤالُها بِنعومَةٍ وقُوَّةٍ هائِلَتَيْن

أَلَمْ أَكُنْ لَكِ يَومًا أَخًا من لَحمٍ ودَم؛

فلِماذا لا تَجلِسين بِرُفقَتي

في غُرفَةٍ لِحُبٍّ طارِئٍ،

تَبدو أمامَ ناظِرَيْنا كَأنَّ ثَمَّةَ بروازًا،

وكِلانا بِداخِلِه، في جاليري زهرة البستان،

يَشمَلُنا السُّكونُ؟

أنا أَمامَكِ كَدُميَةٍ طَيِّبَةٍ،

وأَنتِ في دائِرَةِ البابِ تَلوِّحين لي

بالدُّخولِ، وفَقَط...

في تلك اللَّحظَةِ أَستيقِظُ من النَّومِ

وأُدخِّنُ سِتَّ سجائِرَ، مُحاطًا بِضَوءٍ كَثيفٍ،

هو أنتِ بِشَحمِكِ ولَحمِكِ

في هَيئَةِ وَردَةٍ ذابِلَةٍ بجانبِ بابِ الخُروجِ،

بلا أَيِّ تَخييلٍ ذَاتيٍّ؛

عندما تَسُبِّين العالَمَ

ولا تَكُفِّين عن تَعنيفِ قَذارَتي.

---

* ميمي: في القسمين الأول والثاني، لقب متخيل لمي زيادة أو مونيكا بيلوتشي أو مارلين مونرو أو غيرهن، سيان، هو احتفاء بحرف الميم في العربية الفصحى وتطوره التاريخي.. وارتباطه في النقوش الهيروغليفية المصرية القديمة بالتعبير عن شكل الماء المتموج أو معنى الماء، وقد نقلته عن حضارتنا الكتابات السامية للتعبير عن صوت النون.

27

هُناكَ خُرافَةٌ عَربيَّةٌ في هذا العالَمِ،

لا تَخُصُّ سِوانا،

لن أَقولَ إنَّها الحبُّ،

وإنْ حَدَث ذلِكَ فَبَيْنَ الطُّيورِ في أَعشاشِها،

وبَينَ النُّمورِ الَّتي تُربَّى في بُيوتِ نِساءٍ شَعنوناتٍ؛

إلَّا أَنَّني لا يَزالُ لَديَّ إيمانٌ

بأنَّ الحُبَّ أَحلى من العَسَلِ،

سِيَّان: للصَّيدِ، وللمَريضِ بهِ في آنٍ واحِدٍ؛

يَجلِسُ المريضُ بجانِبِ صَيْدِه وَلْهَانَ،

ولَيسَ مُقدَّرٌ له اعتلاؤُه سِوَى في غُرفَةٍ للأَحلامِ،

بينما يَشرَحُ لي فيلسوفٌ عربي من نيويورك*

بأنَّه لَيسَ مُؤمِنًا به؛

لِكَونِ الصَّيدِ في بِلادِه تَتأكَّدُ نَظريَّته:

بإمكانِ السِّحرِ الانقِلابُ على السَّاحِرِ

بمجرَّدِ المضيِّ قُدُمًا إلى مَدينَةٍ أُخرَى،

والاستِغناءُ عن المكانِ وذِكرياتِه...

إنَّني ضائِعٌ تمامًا، ومَريضٌ به تمامًا،

ووحيدٌ تَمامًا،

وجالِسٌ بلا رَغبَةٍ في خَلقِ أَلفاظٍ عَمَّا يَدورُ بِداخِلي...

يا لَتعاسَتي في كتابِ الأَقدارِ

والمصادَفاتِ المتأخِّرَةِ

للحُبِّ من طَرَفٍ واحِدٍ في زَمَنِ الثَّورات.

---

* فيلسوف عربي من نيويورك: وائل عشري.

28

لماذا لا يُقال عن تلك الجَزيرةِ المعزولَةِ

شيءٌ مُطابِقٌ للمُواصَفاتِ؛

تِلك الجَزيرَةُ الَّتي وَصَلتُ إليها،

مَمدوحَةٌ من زُوَّارٍ في نَفسِ المدينَةِ الصَّديقَةِ

الَّتي أعيش فيها كبطَلٍ مِغوارٍ...

عزيزايَ: صديقي المهاجر وصديقتي الميتة،

سواءً في البَار الكَنَديِّ أو في مَقابِرِ العائِلَةِ المكلومَةِ؛

أَمَّا بَعدُ،

فكما تَعرِفان عن الرَّحلاتِ القَصيرَةِ

الَّتي يَكونُ المرءُ فيها خَفيفًا

كأنَّه ذاهِبٌ لِبارٍ بِجانِبِ بَيتِه

فَيَظلَّ لأيَّامٍ ولَيالٍ يَبحَثُ عن ضالَّتِه

بأن يَجِدَ شَخصَيْن أو أَكثرَ

قد ذَهبوا لِنفسِ المكان،

وعادوا بألبوم من الصُّوَر،

ونُفورٍ له رائِحَةٌ قَوِيَّةٌ من مَكانِهم القديم...

إلَّا أَنَّني –كأحمقَ، فاتَته رُوحُ المغامَرَةِ–

آثَرتُ السَّلامَةَ،

ودَوَّنتُ دفترًا كبيرًا من «اللَّتِّ والعَجنِ»

لأرواحٍ تَقليديَّةٍ عن تلك الجزيرةِ المعزولَةِ،

لِدرجَةِ أنَّني –يا للخسارة– دَوَّنتُ مُتعَتي،

وفَقدتُ سِحرًا لاكتشافٍ قد يُرافِقُني

لو أَلقيتُ مِزاجًا مُطابِقًا للمُواصفاتِ

لَيسَ يَخصُّني في شيءٍ،

وكُنتُ نَفسي بِكلِّ أريحيَّةٍ

وذَهبتُ إلى مكانٍ آخر خالِيًا من الطُّمَأنينَةِ...

إلى متى سأظلُّ ناظِرًا لِشواطئَ وَهميَّةٍ

بداخِلِ الصُّورِ والأَفكارِ، كَأيِّ طائِرٍ مُغرِّدٍ،

ولَيسَ في حَوْزَتي سِوى صَوتٍ نَكِرَةٍ مَكتومٍ،

لماذا لا أَنظرُ إلى الحَياةِ

وأُجرِّبُها بنفس القَذارَةِ الَّتي في الموت؟

ألم تَكُنْ رُوحي لِثوانٍ سِردابًا لمنْظَرِهِ العَكِرِ

في مياهٍ ضَحْلَةٍ على الطَّريقِ الزِّراعي بين مدينتَيْن

صغيرتَيْن،

ونَجوتُ من بين يدَيْه مُصادَفَةً، وبلا مُواصَفاتٍ

لِكتالوج؛

فما أنا وأَنتُما أيضًا إلَّا مِثقالَ ذَرَّةٍ لاحترامِ مَجدِ

الإنسانِ،

فِي هذا الشَّرقِ الحزينِ،

بلا موسيقى تُناديِنا من الضِّفَّة الأخرى:

اطمئنُّوا، حَتمًا سَنَنجو،

وبلا فِعلٍ سِوى للرِّعاعِ

الَّذين يُلقون الفُتاتَ فوق موائِدِنا السَّماويَّة..

لأخاطِبَكُما بِكلِّ صَراحَةٍ:

لَسنا سِوى أَبناءٍ لِتلك البَجَعَةِ السَّوداء

الَّتي تُحاطُ جِهاتُها الأَربَعُ بِبُحَيرَةٍ راكِدَةٍ

وخالِيَةٍ من الصَّلواتِ الخَمْسِ لِدوائِرِ الشَّيطانِ.

29

أَدورُ حولَ المعاني،

وأُمرِّرُها كالألماسِ المطفيِّ

فِي تلك الأوقاتِ التي أضيع فيها بين زمَنَيْن...

كأنَّني ضائِعٌ حتَّى من نَفْسي.

هل أَتمهَّلُ في النَّومِ ولا أذهب إليه؟

خاصَمَت عيناي مَنظَرَه الطَّيِّبَ

وهو قادِمٌ كَملاكٍ بِجَناحَيْن

لِيمسَحَ عن رأسي وَجَعَ الحَياةِ،

وأَصيرَ شَفَّافًا أَتَسلَّى في سَهراتِ كوستا كافيه

برؤيتِه مُجسَّدًا

في سَمْتِ جلبابٍ لِرجُلٍ في سِنِّ الخمسين..

أَظنُّه عامِلًا بلا بيتٍ،

وغَرِقَ بداخِلِ المكانِ لِيَنْسى،

ها هو أَمامي يَعتدِلُ فَجأةً

ويَتذكَّرُ بِأنَّ لَه صَوْتًا،

وضَروريٌّ أَنْ يُطَمْئِنَ نَفسَه بالكلام مَعي عَن:

كَمْ السَّاعَة؟ هل أَذَّن الفَجرُ؟ هَل الجَوُّ مَكتومٌ هُنا؟...

ثم يَسكُتُ الكَلامُ بَينَنا.

هل أتمهَّل في النَّومِ

ولَيسَ في نِيَّتي أيُّ ذَرَّةٍ لجِنونٍ

كَأنْ أُهاتِفَ وردةَ التَّخييلِ الذَّاتيِّ،

وسيميوطيقاي العجيبَةِ،

الَّتي بودِّي أن أقضم أحلامَها؛

فَمُنذُ مُدَّةٍ قَصيرةٍ –قد لا تَتجاوَزُ العامَيْن–

نَويتُ بأن أَقْلِبَ حياتي رأسًا على عَقِب..

لم يَعُد لي رائِحَةٌ، وصارَ لَوني باهِتًا،

ودُرتُ حَولَ نِساءٍ مريضات

بودِّهِنَّ خَدشُ مُسافِرين

في مَحطَّةِ سِكَكِ حَديدِ مِصرَ، يتحرَّكون بِداخلي

كأنَّني حُلمٌ لأَعزَّائي الموتى، يَسيرُ على قَدمَيْن،

ولا يَحِقُّ لي الخُروجُ من فوق القُضبان،

ثمَّ شاءَت الأَقدارُ بأن أَشوطَ الكُرَةَ

وأَتحرَّكَ كالمفلِسينَ

من بَنسيون لكافيه،

ومن كافيه إلى شارعٍ،

ومن شارعٍ إلى غُرفَةِ سُكنَى جَماعِيَّةٍ؛

لأرى روحي طافِيَةً وكأنَّها مَولودَةٌ للتَّوِّ

بين عَينَيْ امرأةٍ وَحيدةٍ هي:

وَردةُ التَّخييل الذَّاتي في لَوحة عبد الهادي الجزار

المجذوب...

أَودُّ لو قُلتُ اسمَها كامِلًا

لأَحْتَمي به كَتعويذَةٍ أَنيسَةٍ بين مَرحلَتَيْن:

في الأولى

نسيتُ بفَضلِ نَفسِ المرأةِ مآسي عاديَّةً،

بينما في الثانية

سَقَطَت هي في جَوفي،

وظَلَّت تَسبحُ بِداخلِ جِسمي

من دون أن أفعلَ أيَّ شيءٍ لِقتلِ الوَهم؛

لِكوني أُومِنُ كَمْ أنا حزينٌ

بِنَفْسِ الدَّرَجَة الَّتي أُومِنُ بها بأنَّ العالَمَ قبيحٌ،

ويَلزَمُه المجازُ في بداية فَصلِ البَردِ...

الآن، أنا أَتعافى مِن المرحَلَتَيْن،

وليس لديَّ خُطَّةٌ عن الغَدِ.

هل سأظَلُّ أَحكي وأُدوِّنُ هُراءَ أيَّامي؟

مَن سَيَحمي ظَهري،

ومتى سَيكونُ لي يدانِ شَريفتانِ لِجَنْيِ النُّقود؟

ففي قَلبِ المدينة الصَّديقَةِ

شُروطُ العَمَلِ غَيرُ مُطابِقَةٍ لمواصَفاتِ مَن هُم على شاكِلَتي...

إلى أَينَ أَهرُب: إنَّني عَلى وَشكِ الانتحارِ

كما حَدثَ لي في العام أَلفٍ وتسعمئةٍ واثنين وتسعين،

وصارَت الفِكرَةُ مجرَّدَ خاطِرٍ لخَلاصٍ مُشوَّشٍ؛

ففي ذلك التَّوقيتِ التَحقتُ بِسلاحِ الإشارةِ كضابِط احتياط،

يَكتُب الشِّعرَ الموزونَ.

أمَّا اليومَ، في العام ألفين وثلاثة عشر،

فأنا لا شيءَ؛

لكَوْني عاجِزًا عن الالتحاق حتَّى بعرَبَةٍ لقطار،

ولا يزال لَديَّ عينان مُغمَضتان كالقِطَطِ الصَّغيرةِ.

30

لا أعرِفُ لِمَ كَتبَ صَديقٌ ذو هُويَتَيْن

قائِمَةً لي بأسماءِ عَشيقاتِه،

وبأنَّهنَّ وَقَعنَ في غَرامِه بِسبَب النَّمَش

الَّذي مُلِئَ به وَجهٌ لِعرَبيٍّ يَقرأُ عَن الصَّحراءِ، وليلى خالد*..

بِنفسِ الإيقاعِ الَّذي جاءَ به لِتعلُّمِ شَيءٍ

عن رائِحَةِ الحُبِّ الأَوَّل

من رحلَةٍ مع امرَأةٍ في نيل أسوان، هَجَرَته وهَجَرَها،

ثمَّ نالَت منه امرَأةٌ أُخرى، لم تَهجُرْه بَعدُ ولم يَهجُرْها؛

بِسبَبِ ذَلِكَ القَارَبِ الَّذي تَمنَحُه إيَّاه

في قاعاتِ الانتظارِ لِوداعٍ قَصيرٍ،

وبَينَ المغامَرَتَيْن لَضَمَ إبرَتَه في خَيطِ صَديقَةٍ تَتكلَّمُ لُغتَه،

وشَارَكَته تَبادُلَ الرَّسائِلِ عن الطَّقسِ والنِّضال،

كُلٌّ مِن مَكانِه في عالَمٍ إلكترونيٍّ مُوازٍ؛

هَل بودِّه إخباري عن دُروس الحبِّ الطَّارِئِ للمُسنِّين؛

لأكونَ مِثلَه رَزينًا

ولا أُفشي سِرِّي لِنساءٍ أَفرَطتُ في حُبِّهِنَّ بلا مُبرِّرٍ..

لا لِشيءٍ، سِوى ظَنِّي الخاطِئ

بأنَّ سبينوزا** لا يزالُ شاعِرًا كبيرًا، ولا يَهابُ النِّساءَ

الجَميلات؟

---

* ليلى خالد: مناضلة فلسطينية.

** سبينوزا: فيلسوف يرى أن الإنسان جزء من الطبيعة، وليس مملكة للنفس قابعة داخل مملكة الجسد.

31

عُدتُ في مَوكبٍ للمُنشِدين

بِرُفقَةِ رائِحةٍ لِخُبزٍ صابحٍ، وعِطرٍ لامرأةٍ..

يَتناوَبان احتلالَ أنفي، ولا يَختَلِطان.

حَيَّرني الأَمرُ: مَرَّةً لِخبزٍ أَظنُّه الفينو،

مرَّةً لِعطرٍ أظنُّه يُودًا طَيِّبَ الرَّائِحَةِ لامرأةٍ

في زيٍّ مدينةِ البَحر..

لماذا لا أَعجِنُهما معًا

بِنَفسِ الطَّرِيقَةِ الَّتي تَسْلِتُ لي امرأةٌ خَيطَها الملوَّنَ

لأَلضُمَ إبرتي في بَتلات زَهرَتِها الَّتي لِعَبَّادِ الشَّمس؟

ها هي أمامَ ناظِريَّ تبدو مُختصَرَةً في وَشْمٍ وشَيْئُها

عارٍ..

وثَمَّة وَشمٌ آخَرُ مُتخيَّلٌ لِرائِحَتَيْن على وَشكِ التَّبخُّرِ

وَسطَ جُمهورٍ من المراهقين، أَدْماهُم السُّكْرُ الجَماعيُّ

باتِّجاه بُكاءٍ لِصوتٍ مُزدَحِمٍ بالمسافرين

لِيَدَيَّ وعَينيَّ وقَدميَّ، ورَأسي

التي تَحتَضِنُ صورَةً إيروتيكيَّةً

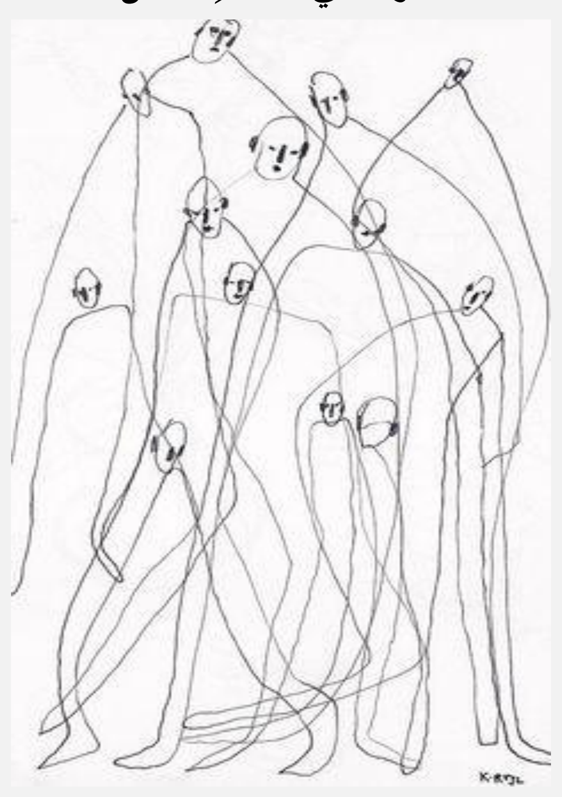
لهذه المرأةِ الماجِنَة، العَظيمَةِ، البَلهَاء،

ومعشوقتي المثقَّفَةِ الحَسناءِ.



القِسم الثَّاني

مُفْرَدَةٌ في مُتْحَفِ اللَّيْل



السَّاعَةُ الآنَ السَّادِسَةُ وإحدى وعشرون دقيقةً،
وثانِيتان،
حَسْبَما يظهرُ فوقَ الشَّاشَةِ الكَبيرَةِ لمجمَّع التَّحرير...
أُفكِّر في مصيري، وقَدَماي ماضِيتانِ بِهِمَّةٍ وحماسَةٍ
لِلَّحاقِ بمعشوقتي المثقَّفَةِ الحَسناءِ..
هي أَمامي على الرَّصيفِ شارِدَة الذِّهنِ،
وأَنا في الزِّحامِ غارِقٌ...



بودِّي أن أتكلَّمَ

للَّحاقِ بموكِبِ المرايا

لأمشي بمُحاذاتها، وأَقرأَ لها قَصيدةً غَزليَّةً عَظيمةً،

هي لنجيب سرور*،

كأنَّها سِلسلَةُ رسائِلَ مَنْسِيَّةٍ

كُتِبَت بِخَطِّ اليَدِ،

وتَبادَلناها للرَّدِّ على بعضنا البعض

في أَواخِرِ السَّبعينيَّات.

أين اختفى صوتي؟

هل صحيحٌ –كما أَخْبَرَتني أُمِّي–

أنَّني بِكامِلِ وعيي دَفَنْتُه، بَيْنَما كانَت المدينَةُ

تتحوَّلُ إلى مَقبرَة؟

---

* قصيدة غزلية عظيمة لنجيب سرور: أيُّها الواقفون على حافَّة المشرحة، وهي ضمن ديوان «أمِّيَّات».

*****

مجرَّد حَدْسٍ رافَقَني

جَلَبَ لي الضَّجَرَ والتَّعاسَةَ.

كيفَ للألفاظِ أن تَكونَ مُؤذِيَةً بالنِّسبةِ لي؟

كَمْ أنا مُرتابٌ وأَحمقُ،

اعْتَدتُ شَطْبَ دوائِرِ الحيرةِ بداخِل جَسَدي

والذَّهابَ بها إلى الميادين العامَّةِ

على غَيْرِ هُدًى، وبِمَحْضِ الصُّدْفَة،

لا لِشَيءِ أُخطِّطُ له؛

بل لاستعادَةِ وَردَةِ التَّخييل الذَّاتيِّ،

والْتِقاطِ مشاهِدَ افْتراضِيَّةٍ

بينَ امرأةٍ تَسكُنُ في المدينَةِ وشاعِرٍ بورسعيديٍّ صُعلوكٍ،

في لَحظَةِ مُغادَرةِ الذِّكرياتِ

من بين ضُلوعِهِما

إلى صَناديقِ القمامَةِ المجاوِرَةِ لهارديز،

واتِّجاهَ شارع يوسف الجندي.

*****

أَشُكُّ أنَّني أستطيع نَحْتَ استعارَةٍ جَيِّدَة

من أَجْلِ أَحَدٍ...

لَكَمْ فَشلتُ في الحصول على مُتعَةِ البَقاءِ وحيدًا؛

بسبَبِ أَوهامي الَّتي لم أَخْلِقْ غَيرَها

على مَدارِ خَمسِ سَنواتٍ...

لماذا أنتَظِرُ هَكَذا

إعادَةَ تَشغيلِ صَوتي لِصالِحِ قِصَّةِ آدم عبد الله،

الشَّبيهَةِ

بالسَّفَرِ بين نُقطَتَيْن؛

الأولى مَدينَةٌ صَغيرَةٌ،

والثَّانِيَةُ واسِعَةٌ ورحيمَة،

وبَينَهما صادَفَت روحي جَسَدَها*،

كما يُقالُ بِواسِطَةِ لِسانٍ مَقطوعٍ

عن تَجربَةِ حُبٍّ من طَرَفٍ واحِدٍ

لمعشوقتي المثقَّفَةِ الحَسناء.

---

* صادَفَت روحي جسدها: اقتباسٌ من شاعر تشيلي نيكانور بارا، ترجمة أحمد حسان.

*****

مَضى وَقتٌ وعَلَمُ البلادِ يُرَفرِفُ تَحتَ سَماءِ الكَعكَةِ الحَجريَّةِ،

أَنظرُ عن يَميني وعن يَساري،

أَنظُرُ أمامي وخَلفي،

أَنْظُرُ لِتلكَ اللَّحظاتِ الَّتي يُصدِّقُ فيها المرءُ نَفْسَه،

وإذا بصديقي آدم عبد الله مَحمولًا فوقَ الأكتافِ،

ثَمَّةَ أَغرابٌ عَديدون يُردِّدون وراءَه شيئًا يُقال،

كأنَّهم طَلَبَةٌ في ساحَةِ الجامِعَةِ يَبْتَكِرون مَفقوداتِه:

عاشَت أُمِّي..

عاشَ أَبي..

تَحيا الثَّورَة...

*****

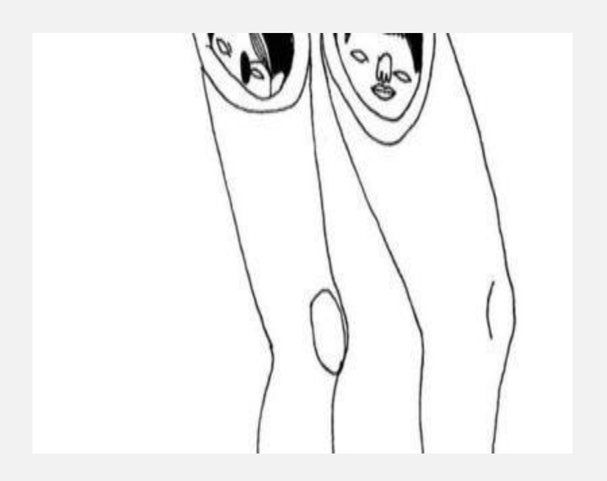


بِماذا يُمكِنُني الابْتِداءَ عن مُعْضِلَتي؛
مُعضِلَة المدَّعي
ذلك المَرَضَ الَّذي لازَمَني بين الجدرانِ
وفي تَمشياتِ المساءِ والسَّهرَة...
كَمْ أنا مُتيقِّنٌ من رَغبتي أنْ أَكونَ صَريحًا،
غَطَّاني الغُموضُ وسَيطرَت على كَلماتي
عاطِفَةُ المجازِ،
أَقِفُ أَمامَ فَرْشَةِ جَرائِدِ العَمِّ رمضان
ثُمَّ أَشعُرُ بالضَّجَرِ والقَرَفِ من وجودِ العَساكِرِ...
ليسوا هَؤلاءِ العَساكِرَ الطَّيِّبين الَّذين تَحدَّثَت عَنهُم
مَعشوقَتي المثقَّفَة الحَسناءُ في عَرَبَةِ التَّرحيلاتِ..
ليسوا هُم مَنْ يَنقلون جَسدَها من مَيدانٍ إلى قَفَصٍ؛
بَلْ عُشَّاق الأثرياءِ الجُدُدِ الصَّاعِدِين، الَّذين تَفوحُ من
أَزيائِهِم المدنَيَّةِ
رائِحَةُ اقترابِ الأَجَلِ والفَناء:

«كان ياما كان»...

قُلنا مَعًا في هَيئَةِ هُتاف.

*****



طارَ النَّومُ من عَيني

بين كابوسٍ وحُلمٍ..

إنَّني في طَوْرِ المشوَّهين،

ولا أَمَلَ لدَيَّ في الشِّفاء،

أَدخلُ من شارعٍ جانبِيٍ، وبودِّي الهروبُ،

لا أعرِفُ مِمَّ أَخافُ؟

هل شُيِّدَت بين ضلوعي مَرَّةً أخرى

نِقمَةُ الارتيابِ،

والشعورُ المريرُ بالأيادي الغليظةِ الَّتي تُطارِدُني من

الخَلْفِ؟

أتلفَّتُ حولي مَرَّاتٍ ومَرَّات؛

فلا أَجِدُ سوى تمثالِ رَجُلِ البَنكِ،

وثُلَّةٍ من المراهِقين يَلعَبون في جَسَدٍ واحِدٍ لِفتاةٍ...

بلا مُوارَبَةٍ أو خُذلان

أَعودُ لِرصيف مَكتبةِ الشُّروق،

وأَنظرُ في الجِهَةِ المقابَلَةِ لِصورَةِ حاكِمِ البلادِ

وهي مَفرودَةٌ على واجِهَةِ جروبِّي..

أيُّ لَعنَةٍ حَلَّت على هذه المدينَةِ

لِيُزيِّنَ مبانيها بَدَلًا من الرُّسوماتِ والكلماتِ الطَّيِّبَة

وَجهُ الملِكِ الجديد!

قُلتُ بصوتٍ عالٍ.



ثمَّ انحرفتُ بجسدي النَّحيفِ مُخاطِبًا جاري المسِنَّ
على حافَّةِ الرَّصيفِ:

هل يُعْقَلُ يا سيِّدي أنْ آتي إلى هَذه البُقعَةِ
من أَجْلِ تَمضِيَةِ الوَقتِ والفُرجَةِ على ماركات شُنَطِ
وأَحذيَةِ النِّساءِ النَّاضِجاتِ؛
فهذه هُوايتي المفضَّلَة في الأوقات الحالِكَةِ يا سيِّدي...
اعذُرني.. قَطَعتُ عَليكَ وحدَتَكَ، وذَلك الضَّجيجَ
البادِيَ أَمامَ ناظِرَيْكَ...
اعْذُرْني يا سيِّدي؛ فَبِلادُنا مُجرَّدُ مَبْوَلَةٍ وساحَةٍ للقتالِ
مجَّانًا.
يا للحقارَةِ!
هل سَتظلُّ ساهِمًا هَكذا يا سيِّدي؟
أَلَنْ تُخاطِبَني سوى بِنظراتِكَ الميِّتَةِ؟!
تَخيَّلْ أَنَّه يومُ البَعْثِ، وأَنَّكَ جالِسٌ بِرُفْقَتي الآنَ
كمُصطافين على شاطِئِ البَحرِ
نتبادَلُ الذِّكرياتِ عن الحياةِ الدُّنيا،
وفي راديو المدينة الصديقة صَوتُ كايروكي يَصدَحُ
بِخَلاعَةٍ:
«إِحْنا شعبين..

شعبين»...
أَلَا تُؤمِنُ يا سيِّدي بمقولَةِ النَّبيِّ مُحمَّد الخالِدَة:
«يُبْعَثُ المرْءُ مَعَ مَنْ يُحِبُّ»؟
لا تُواصِلِ الصَّمتَ، وانْطِقْ بِكلمَةٍ أو كلمتين..
لا يوجَدُ سوانا في هذه الجِهَةِ من الميدانِ الصَّغير،
وعلى هذا الرَّصيفِ،
وهؤلاء المتحرِّشين القِحابِ بجسَدٍ واحِدٍ لِفتاةٍ
على الضِّفَّة الأُخرى...
وهذا الضَّجيجِ الَّذي تَصنَعُه العَرباتُ اللَّعينَةُ بوسط
المدينَةِ.
أَلَا تَعرِفُ لِمَ يَتلكَّؤون بِتحويلها إلى مَمشًى لِذكرياتِ
شَيْخوخَةٍ
وساحَةِ قِتالٍ؟!
: حتَّى لا نَكُفَّ عن إِشعالِ الحرائِقِ
مثل تلك الأساطيرِ التي نُشاهِدُها في فيلم
«Sin city»...

هل تُحبُّ أفلام الأكشن؟

لماذا لا تَرُدُّ عليَّ؟

هل لِسَطحيَّتي وتَفاهتي؟!

بابٌ، وبيتٌ بلا نوافِذَ، وبُحيرةٌ راكِدَةٌ...

سأقولُ لكَ سِرًّا:

قرأتُ العديدَ من المؤلَّفاتِ.. هذا عملي،

وعُدتُ خائِبًا من حديقةِ الأفكارِ،

ظَلَلتُ لِسنواتٍ مثل الببَّغاءِ أُردِّدُها على صديقاتي...

في الحقيقَةِ يا سيِّدي «صَديقاتي» تُخْتَصَرُ لُغويًّا بأنَّها

مَدخَلٌ لِتجربَةٍ ما

على وشكِ التَّحَقُّق...

لِكَوني ذِئبًا ذا قَلْبَيْن؛

لَم أُجرِّبَ مَرَّةً أنْ أُحبَّ فتاةً كاملةً،

كُنتُ أجري بأقصى سُرعَةٍ للحُصولِ على مُضاجَعَةٍ؛

لِأُصدِّقَ أَنَّني وقعتُ في الحُبِّ...

آه.. نسيتُ أن أُخبِرَكَ يا سيِّدي أنَّني شَخصٌ مادِّيٌّ،

وغيرُ مُؤمِنٍ سوى بالمصادفاتِ؛

المصادَفاتُ هي سيميوطيقايَ العَجيبَةُ:

بمجرَّدِ أَنْ تَقترِبَ المرأةُ

ولا أَنْشَغِلُ بمَفاتِنِها؛

(للحَقيقَةِ لا أُفَضِّلُ سِوى الجَميلاتِ)

آخُذُ وَضْعَ المثقَّفِ العارِفِ بِكُلِّ الأُمورِ،

وأبدأُ في سَرْدِ قِصَّةِ فَيلسوفِ بورسعيد،

الَّذي نَصَّبْتُه، هَكَذا، بعبارَةٍ لَن تَشغلَ حَيِّزَ نِصْفِ

صَفحَةٍ في كِتاب.



كأنَّني أَعزِفُ سيمفونيَّةً ضدَّ الأنانيِّين

فوقَ كوبري قَصْرِ النِّيل،

حزينًا ووحيدًا،

وأفكِّر أنَّ ثَمَّةَ عينَيْن تَرقُبان انفعالاتي عن بُعْدٍ

من تلك الشُّرفَةِ المضاءَةِ في الطَّابق الثَّامن بفُندُقِ

سميراميس...

لقد مَلَلتُ من دوائرِ الكلامِ بيني وبينَ تَهيُّؤاتي،

يا رَجُل.. تَحدَّثْ إليَّ؛

الموتى يَهزُّون أجسادَهم أحيانًا..

هيَّا، حَرِّكْ لِسانَكَ،

لديَّ رَغبةٌ في سَماع صَوتِكَ...

فلْتَعْلَمْ أَيُّها الفاشِيُّ العاشِقُ

أنَّني مُجرَّدُ نُسخةٍ حَيَةٍ مَعيبَةٍ،

وأنتَ بِكلِّ بَساطَةٍ مُجرَّدُ نُسخَةٍ مَيِّتَةٍ

لنَفْسِ الرَّجُل...

هيَّا، تَرَجَّلْ من مَقْبَرَتِكَ

وكَلِّمْني وَجهًا لِوجهٍ؛

فالحياةُ قَصيرةٌ للغايَةِ،

ولا بُدَّ للمَرءِ قَبلَ أَن يموتَ ويَلْتَحِقَ بِنُسخَتِهِ الميِّتَةِ

أنْ يترُكَ أثرًا يُقال عن نُسخَتِه الحيَّةِ المعيبَة؛

فبانقِطاعِ ترديدِ لَفظَةٍ أو عِبارَةٍ أو فقرَةٍ عن إحداهما؛

تختفي وتَزولُ الأُخرى، وتَنساهُما أَلسِنَةُ النَّاس

في المكتَباتِ، وبينَ طُرقاتِ الجامِعَةِ، وأَثناءَ حُدوثِ

ثَورَةٍ...

كأنَّهما مَنسيَّان...

أنتَ حِمارٌ يا رَجُل!

ولا تُدرِكُ سيميوطيقايَ العَجيبةَ،

ولا تُريدُ أنْ يَكونَ لآدم عبد الله

أُسطورَةٌ تَمشي على قَدَميْن.

*****



نحن -مُوسيقيِّي المدينَةِ،

وعازِفيها الأَبرار-

نُجرِّبُ التَّخفِّي،

ثُمَّ نَنسى الأمرَ بِرُمَّتِه...

نُجرِّبُ مُراقبَةَ التَّخفِّي وهو يَحدثُ لأصدقائنا المساكينِ،

ثمَّ نَنسى الأمرَ بِرُمَّتِه...

وهكذا صار التَّكرارُ زَوجًا لأُمَّهاتِنا البائِساتِ،

ثمَّ نَنْسَى الأمرَ بِرُمَّتِه...

ولَكِنْ هَذِه المرَّة للمُضيِّ قُدُمًا

إلى مقاعِدِ الصَّامِتين؛

آمَنَّا بِشكلٍ مُطلَقٍ وأَكيدٍ

أنَّ الكَلماتِ صارت بَغيضَةً،

وهي مُتراصَّةٌ بِجانبِ بعضِها لِتُقالَ جُملَةً.

إلى متى سَنظلُّ غيرَ مَرئيِّين؟

أَلَا تَصِلُ مُوسيقانا الصَّادِحَةُ إلى السَّاحات

والميادينَ

كأنَّها لم تَكُنْ،

ووُلِدَت من فَراغٍ،

ووُئِدَت حَيَّةً؟

نَحن أَهلُ الكَدِّ والتَّعَب،

وتلك الدِّماءُ الَّتي لم تَهدَأ أَرواحُ أصحابها؛

فناموا فُرادَى وجَماعاتٍ

في مَدافِنِ الدَّولَةِ،

بِنِصفِ ثَورَةٍ ذاعَ صيتُها مِثْلَما يُقالُ...

نحن –موسيقيِّي المدينةِ

وعازِفيها الأَبرارَ–

نُعلِنُ انفصالَنا عن كَوكَبِ الأَرضِ،

بِودِّنا الصُّعودُ...

بودِّنا القيامة...

*****

رَغْبَةٌ...

مجرَّدُ رغبَةٍ،

يُردِّدُها المرءُ الطَّيِّبُ الشُّجاعُ

وهو عائِدٌ من العَمَلِ،

وحبيبتُه جالِسَةٌ مَغسولَةً بالأَلوانِ،

كأنَّها سَمكَةٌ طازَجَةٌ

قَفَزَت للتَّوِّ من رُسوماتِ جميل شفيق،

واستقرَّت أَمامَه مَطبوخَةً فَوقَ مائِدَةِ الفُطور...

ليسَ عَليكَ أَيُّها الجائِعُ

–لِطَزاجَةِ السَّمكَة–

سوى اتِّخاذِ خُطوَةِ تَحريكِ اليَدَيْن باتِّجاهِها...

ها هي وعيناها تُوَدِّعانِكَ

استعدادًا لِرَقصَةِ مُعسكراتِ الاعتِقالِ،

والتَّدابيرِ الاحترازيَّة...

*****



جئت إلى هنا مُهانًا،

ويَومًا ما سأخرجُ إلى دَوائِرِ العَملِ والحُبِّ والكَراهِيَةِ

ومنح التفرغ،

حُرًّا طليقًا

سأعودُ إلى ما اعتدتُ عليه بِنَفْسِ الإهانَةِ،

ولَنْ يُلاحِظَ أَحَدٌ من مَعارفي المقرَّبين

أنَّني قَد تَحوَّلتُ إلى مَريضٍ خائِفٍ وحيوان مفلس،

يُفضِّلُ التَّأمُّلَ والصَّمتَ المريرَ؛

فَمُنْذُ وُلِدْتُ وأنا سَجينٌ،

في بَيتِ العائِلَةِ كانَ أبي يَلعبُ دَورَ حارِسِ القَفَصِ

بامتيازٍ،

وكفاءَةٍ يُحْسَدُ عَلَيهِما،

ولكنَّني بِمحبَّةِ أُمِّي القويَّةِ هَرَبتُ إلى مَدينَةٍ صغيرَةٍ،

يُسمُّونها عروسَ الدِّلتا

هُناكَ الْتقَيتُ بمثقَّفَة حَسناء وشيوعية ثائرة لَعينَةٍ،

تُنْكِرُ حُبِّي الدَّائِمَ في ظِلالِ القُرآنِ،

وبِمَحْضِ إرادَتي دَخلتُ سِجنَ مَلذَّاتِها الطَّيِّبَة

حتَّى أتحرَّرَ من شَهوَةِ الدِّين

على قارِعَةِ الطَّريقِ،

وَأصيرَ تائِهًا ضعيفا بِلا إلَهٍ مُنْقِذٍ...

ظلَّت عَينا المرأَةِ السَّوداوان تُرافِقانَني

وتَحرسانَني من مَطبَّاتٍ وتافِهاتٍ وكوارِثَ.

كُنتُ أتردَّدُ في تَذَكُّرِها، وأَدخُلُ بِرُفْقَتِها

جميعَ الحاناتِ،

بين الدُّقِّي ووسط المدينَةِ،

اعتدتُ أنْ يُهاتِفَني أَصدقائي

في الموعِدِ الأُسبوعيِّ لاحتساءِ البيرَةِ،

ويَتساءَلون: «هَلْ بِوُدِّكَ الذَّهابُ إلى الفَقيرَةِ،

أَمْ إلى ذاتِ الأَسعارِ الدَّالَّةِ على لُصوصيَّةِ مالِكيها؟»؛

فأنتظِرُ، كأنَّني أخاطِبُ هواءَ الغُرفَةِ،

أَصْدُقُكم القَوْلَ:

صَديقَتي في سابعِ نومَة،

وهي الَّتي تمدُّني بالنُّقودِ، ولا أَعرِفُ

أيَّ الأَماكِنِ تَودُّ لي أن أذهبَ؛

لأُفكِّرَ بها وهي غائِبَةٌ

وغيرُ مَوجودَةٍ إلَّا في أفراحِ البيرة*،

كَأنَّها اكتمالٌ لمعنًى

مَكتوبٍ على بابِ قَصيدةٍ مهداة لعلاء خالد،

قَرأتُها في مجلَّةِ ماستر وأنا عائِدٌ للثُّكْنَةِ العسكريَّة

في قِطارٍ مُكيَّفٍ، وعلى حسابِ القيادَةِ،

لا أَذكُرُ هَل حدثَ ذلك في ١٩٩٣

أم ١٩٩٤،

لكنَّني أُؤَكِّدُ أَنَّه لم يَحدُثْ في ١٩٩٥...

ذَلكَ التَّوقيتُ الَّذي غادَرتُ خلالَه مدينَتَيْن؛

هما: جَسَدُ صديقَتي، واسْمُ الإسماعيليَّة.

---

* أفراح البيرة: قصيدة لأسامة الدناصوري.

*****


KoRYL
-2015

يا رَبَّ الرَّغيفِ الفَذِّ..

الرَّحْمَةَ.. الرَّحمَة.

يا إلهي، وإلَهَ سيميوطيقاي العَجيبةِ،

وعدوَّةِ الاستعارَةِ..

الرَّحمَةَ.. الرَّحمَة؛

فلا يَزالُ لَديَّ رَأسٌ وجَسَدٌ،

قَدمان وعَينان وقَلبٌ حزينٌ،

ضَلالاتٌ وقَناعاتٌ،

اعترافاتٌ وشائِعاتٌ،

بدايتان.. ونهايتان،

مَلحَمةٌ شِعريَّةٌ، ورواية.. قِصَّةٌ

عنِّي، وأنا فَردٌ وَحيدٌ،

وعَنها، وهي مُنطَلِقَةٌ كالبارودِ الذي يَتفتَّتُ،

ويَتشكَّلُ من تَقاطُعاتِه فوقَ لَحمي

أَسراب لطيورٍ سَماويَّةٍ.

*****



كان ليلًا مُتكرِّرًا

في نَفْسِ الغُرفَةِ...

أيُّ نَحْسٍ جَعَلَ حياتي

مجرَّدَ لحَنٍ مُملٍّ!

أين اختَفَت تلك اللَّعينَةُ

الَّتي تَضخُّ النَّهرَ بالمياه؟

أَجلِسُ أَمامَ مُحرِّكِ البَحثِ،

وأُؤلِّفُ لِنفسي طَوقَ نَجاةٍ...

بِودِّي أن أَشْبَعَ

كَم أنا جائِعٌ

إلى خَلاصي!

تمنَّيتُ له أن يَكونَ مُجرَّدَ صورةٍ مَهزوزَةٍ

لمعشوقتي المثقَّفَةِ الحَسناءِ،

وهي تَظهَرُ وتَختفي كَلوحةٍ إعلانِيَّةٍ

على سَطحِ شاشَةِ «آبِل»

هل يُعْقَلُ أَنَّني من هؤلاءِ المتصوِّفَة

الذين صاروا كلاسيكيِّين

بمجرَّدِ كتابَةِ حَرفٍ عَربيٍّ

بِضغطَةِ زِرٍّ؟

شَغَلني الأَمرُ، وتَمادَيتُ،

وعُدتُ تائِهًا إلى فِراشِ النَّوم...

كان ليلًا مُتكرِّرًا

في نَفْسِ الغُرفَةِ،

أدخِّن سيجارةً، وأتذكَّر فَضائلي...

لا أَعرِفُ أينَ ومتى قَرأتُ

عَن رَجُلٍ وَحيدٍ يُشبِهُني،

جرَّب أن يَكتُبَ ما يتمَّناه،

ويومًا بعدَ يومٍ

اعتادَ التَّفكيرَ في أُمنيةٍ جَديدةٍ

حتَّى صارَت الأيَّامُ

كَومَةً من الأَحلامِ العاديَّةِ،

سَهلَةَ الولادَةِ،

سَهلَةَ التَّحقُّق؛

بمجرَّد رَصِّ الكَلماتِ بجانِبِ بَعضها البَعض،

فَمَثَلًا لو أَرادَ في لَيلَةِ الخميسِ

أَنْ تَزورَه أُمُّه الميِّتةُ؛

ما عَلَيه إلَّا البَحث عن صورَةٍ لهما

وهما مُتعانقان مثل ورقتي ثمرة كرنب طازجتين

في غُرفَةِ المعيشَةِ،

ويَبتسِمان للكاميرا...

ثمَّةَ خاطِرٌ مُرْبِكٌ

يتشكَّل في رأسي

عن رَجُلي الوحيد الذي قرأتُ عنه،

ويُشبِهُني،

لم يَكُنْ هو سوى نُسخَةٍ واقعيَّةٍ

من مدينَةٍ على وَشَكِ الزَّوالِ،

تَحديدًا في ذَلِكَ الزَّمانِ السَّيِّئ

الَّذي تُعَدُّ فيه المدُنُ مرايا عاكِسَةً للمُكتَئِبين؛

فبمجرَّد أن يموتَ ويُدفَنَ واحِدٌ منهم؛

يُوارَى في التُّراب جزء واقعي من تلك الأماكن

التي تردَّد عليها وأَحَبَّها مُحاطَةً بالاحترامِ والتَّقديس.

عَرفنا عَجوزًا لم يَكُنْ له بَيتٌ في المدينة،

واعتادَ قَضاءَ لياليه على بابِ حانَةٍ،

وباختِفائِه، وافْتِقادِ خُطواتِه بين أَركانِها؛

غَلَبَ على مُرتاديها الأَسى المصاحِبُ

لِترديد النِّكاتِ البَذيئَةِ...

نَفْسِ النِّكاتِ البَذيئَةِ

الَّتي ياما قِيلَت على لِسانِ العَجوزِ الغائِبِ،

حَكى ذاتَ مَرَّةٍ نُكتَةً عن ديكتاتورٍ نَذْلٍ سَنَةَ ٢٤

(يا أَلِّنبي يا ابن النبوحا..

يا اللي أمك وحشة وشردوفة)

فَتَصايَحْنا: «عَليكَ اللعنة يا عَمّ عبده...

اشرَبْ من كَأسِكَ، وكُفَّ عن شَطَحاتِكَ

السورياليَّةِ»...

كان يُصابُ بالذُّعر إذا قاطَعناه

أنا وشِلَّةُ الأُنْسِ في حانة «لوتس»،

كأنَّه يَرتَجِلُ..

نَعَم، كانَ «إدموند هنري هاينمان ألّنبي»* ديكتاتورًا

نَذْلًا

يَقُضُّ مَضاجِعَكُم

بمَدحِ الأَغنياءِ والشُّرطَةِ والقيادَة وبذور الإسلام

السياسي

فقط لا غير،

كَأيِّ برجوازيٍّ صغيرٍ

لا تَكُفُّ شَريكةُ عُمرِهِ عن وَضْعِ إبهامِها

في مُنتَصَفِ الفَمِ الَّذي يَأمُرُ ولا يُؤْمَرُ؛

لِتُنْتِجَ لنا حَدَقتاه دُموعًا إلكترونيَّةً ودُمًى مَحروقَةً

تَصلُحُ لِسُكارى يُشبِهونَكُم...

واهٍ ثمَّ واهٍ على هذا الخَسيسِ،

ورُوَيدًا رُويدًا يَنسَحِبُ صوتُ عَمّ عبده

كأنَّنا جُمهورُه

وجالِسون في مَسرَحِ الحانَة،

ثم –يا للهول– يَهتِفُ ويُغَمْغِمُ:

«نَذْلٌ ديكتاتور..

ديكتاتورٌ نَذلٌ..

نَذلٌ ديكتاتور..

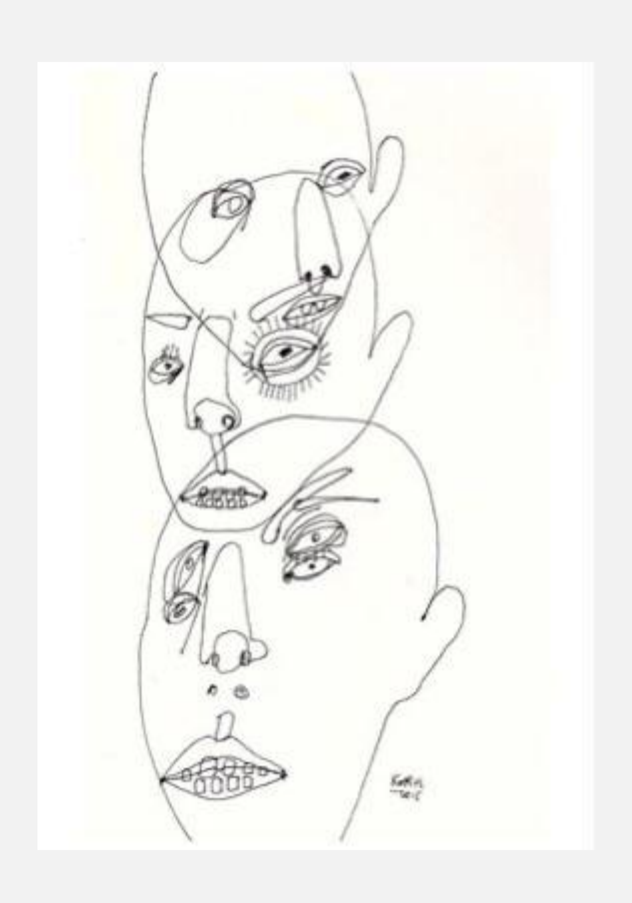
ديكتاتور نذلٌ...»،

وهكذا، حَتَّى يَحِلَّ السُّكونُ على جَسَدِهِ المنْهَكِ

من كَثْرَةِ الحرَكَةِ والكلامِ،

وتَبدَأُ تَباشيرُ الصَّباحِ..

نَذلٌ ديكتاتور...



ديكتاتور نَدلٌ..

نَدلٌ ديكتاتور..

ديكتاتور ندل..

وهكذا، دَواليك...

---

* «إدموند ألِّنبي» الذي وصفه عم عبده بالديكتاتور الندل: ابن المحتل الإنجيلزي لمصر، وكرهه أهل بورسعيد وسخِروا منه في رباعياتٍ بالعامِّيَّة المصريَّة، ولا تزال دُمًى شَبيهةٌ به تُحرَق؛ احتفالًا بخروجه من مصر، في شارع «أوجيني».

*****

بماذا أُفسِّر لَكُم اكتئابي؟

إنَّني أَضحَكُ كثيرًا عليه

وهو مِسكيني الَّذي رافَقَني

ولم أَهْزِمْه

ولم يَهْزِمْني،

نَحنُ مُتعادِلان في الحُبِّ والكَراهِيَةِ،

وشَرَفِ الخُصومَةِ،

نَحنُ شَبيهانِ في ضَعْفِنا أَمامَ بَعْضِنا البَعْض

بِصديقِنا آدم عبد الله

وهو يَتْلو للمَرايا أَناشيدَهُ الخاسِرَةَ

لِيَنْفَلِتَ من أَحبالِ حَنجَرَتِه أَوْهَنُ الخُيوطِ

كما يَليقُ بِبائِعٍ مُتجوِّلٍ لأَحْزِمَةِ البَناطيلِ

في الحَيِّ التِّجاريِّ

(لَستُ شُيوعيًّا كما تَظنُّون

ولَكِنَني أَكرَهُ الأَغنياءَ والدواعش؛

وهذا ما يَقُضُّ مَضاجِعَكُم)

لَستُ صَخرَةً

لَستُ ذَلكَ الدِّيناميتَ الَّذي يُفتِّتُها

لَستُ ذَلِكَ الفَتيلَ المشتَعِلَ لِحُدوثِ الانْفِجارِ

صَدِّقانا، أَنا واكتِئابي

نَحنُ في انتِظارِ عُودِ ثِقابٍ وَحيدٍ*
عُودِ ثِقاب...

---

* عود ثقاب وحيد: اسم مجموعة قصصية للأستاذ وجيه عبد الهادي.

*****



انْتَصَفَ اللَّيلُ

ولا تَزالُ قَدَماي تتَحرَّكان

من مَكانٍ إلى آخرَ

مَسلوبَةٌ إرادتي كَأنَّني أحْتَضِرُ بِبُطءٍ

وبودِّي في ظلالِ تَعثُّراتي

أَنْ أَرْكُلَ صَرامَةَ العَالَمِ

وأَمْتَدِحَ طَريقي الَّتي لا تُفضِي إِلَيْه

طَريقي الآخِذَة في التَّشَكُّلِ أَمامَ ناظِرَيَ

كَأنَّها فَخٌّ لِسرابٍ عَانَيْتُ مِنْه

هل انتظارُ خمسين عامًا أُخرى

يَصْلُحُ كَثَمَرَةٍ لافتِقادِ إجاباتٍ صغيرَةٍ

عن بَديهيَّاتٍ وأَسئِلَةٍ كُبرى لمواصَلَةِ العَيْشِ؟

دَخلتُ شارعي المفضَّلَ

ولا أَعْرِفُ ماذا حَدَثَ لأتذكَّرَ فَتاتي

بمجرَّدِ الاقترابِ من مَنْزِلِ القُبَلِ الأُولى

ورَقَصاتِ التَّعَرِّي الصَّباحِيَّةِ،

أُصابُ –وعاطِفَتي– بِدَاءِ التَّضَخُّمِ،

أَيُّ بلوزة نَزَعتُها؟

ما لَونُها الَّذي جَعَلني عَجولًا

على عَكْسِ عادَتي مع مَنْ أَعشقُ وأُحِبُّ؟

آهٍ.. تَذَكَّرتُ،

لقد كُنتُ وهي تُخاطِبُني واقِفَةً

أَشمُّ رائِحَةَ الحَياةِ قادِمَةً بِعُنْفٍ من ذلك الشِّقِّ

بين ثَدْيَيْها الشَّبيهَيْن بِعبوَتْين ناسِفَتَيْن..

قالَت: «لا أَمَلَ فيكَ؛ أَنْتَ طِفلٌ، وأَنا بِحاجَةٍ لِأَخٍ

يُساعِدُني»...

ثُمَّ نَظَرَت باتِّجاهي كَأَنَّها لم تَرَني من قَبْلُ؛

فاحْمَرَّ وَجهي تمامًا..

قُلتُ: «ماشي.. أَنا أَخوكِ أَصْلًا، ولَكِنَّني مَهووسٌ بِكِ

لِدَرَجَةِ أَنَّني جَعلتُ من هَذِه العُقْدَةِ سِتارَةً لِكِلَيْنا

ونَحْنُ غارِقان بَينَ الكُتُبِ الَّتي قَرأناها مَعًا،

وعُلَبِ السَّجائِرِ الَّتي قَضَيْنا عَلَيها،

وزُجاجاتِ "النَّبيت" الَّتي لَهَوْنا بِها للتَّعَرُّفِ

إلى الأورجازْمِ؛

من أَجْلِ فيلمِ "بورنو"،

كِلانا أَبطالُهُ

والسِّتارَةُ في الخَلْفِيَّةِ مِثلُ شاشَةِ كمبيوتر التِّسعينيَّاتِ،

نَفْسُ السِّتارَةِ الَّتي تَتَجسَّدُ من وَرائِها الأَحداثُ

في مُخيِّلَتي،

وأنا أَنْتَهي من الخَطْوِ في شارِعي المفضَّلِ،

حَيْثُ بَلكونَةُ بَيتِ فتاتي مُظلِمَةٌ،

ولا أَحَدَ في انتظارِ تَلقِّي إشارَةٍ مِنِّي؛

لأَتَهَيَّأَ أَنْ أَكونَ حَذِرًا، مُختَفِيًا
وراءَ الضَّبابِ،
صاعِدًا من بَوَّابَةٍ حَديديَّةٍ صَدِئَةٍ
إلى غُرفَةِ النَّعيمِ».
أيُّ سَعادَةٍ في هذا العالَمِ الرَّتيبِ
أَجْمَلُ مِنْ يَدٍ تَمتَدُّ نَحوَ فتاةٍ شَهيَّةٍ!

*****


KARYL

كُلٌّ مِنَّا جَلَسَ بِحَذَرٍ في رُكنٍ ما،

وبَدَأَ يفعَلُ ما اعتادَ عَلَيه لِيُطَمْئِنَ نَفْسَه في أوقاتِ الخَطَرِ،

أَوقاتِ الخَطَرِ الَّتي بِفَضْلِها تُدَمَّرُ الوحْدَةُ وتُهَيْمِنُ على ناظِرَيْنا

عاطِفَةُ عُروضِ أَفلامِ «البورنو»،

و «left 4 dead game»،

وتَنْتَشِرُ رائِحَتُها مَخلوطَةً بالأَوْهامِ...

أَبدو أَبْلَهَ مِثلَ «٠٠٧»

في تِتْرِ فيلم «الشَّيطانَة الَّتي أَحَبَّتني»،

ولا أُفَكِّرُ إلَّا في إطلاقِ رَصاصاتٍ كافِيَةٍ

تُرضِي شَريكَتي

وهي لا تَنظُرُ لي ولا لِشاشَةِ «الآيباد»، ولا لأزرارِ «الكيبورد»،

ولا حتَّى حوائِطِ الغُرفَةِ؛

بَل لِسِلْسِلَةٍ مُدلَّاةٍ من عُنُقي

تَعْتَقِدُ أَنَّها جالِبَةٌ للنُّعاسِ

من كَثْرَةِ ما نَظَرَت إلى خَرَزَتِها ونامَت على الفَور،

وأَظَلُّ أُرَدِّدُ: «هيَّ بتسْتَهْبِل وفاكراني زومبي!»،

كيف تنام هكذا وأنا مُستَيقِظٌ مُنذُ يومَيْن

أُعِدُّ نَفْسي لملاقاتِها

أيٌّ من الكَلامِ الكَذوبِ المعسولِ

سَآكُلُ بِهِ قَدَمَيْها الخَفيفَتَيْن

يَليهما جَبَلانِ مِن لُؤلؤٍ يُمَهِّدانِ لِلوصولِ إلى بابِها

التَّاسِعِ

لِأَنالَ الوَرْدَةَ الصَّغيرَةَ

الَّتي تَبْرُزُ، بينَما مُؤَخِّرَتُها تَرتَجُّ،

وَردَةٌ صَغيرَةٌ هِيَ كُلُّ غَنيمَتي الَّتي أَتَمَنَّاها

بَينَما ظَنَّت صَديقَتي نَفْسَها لَوْحَةً لِخُنْفُساءَ رِيفيَّةٍ

مَشلولَةٍ

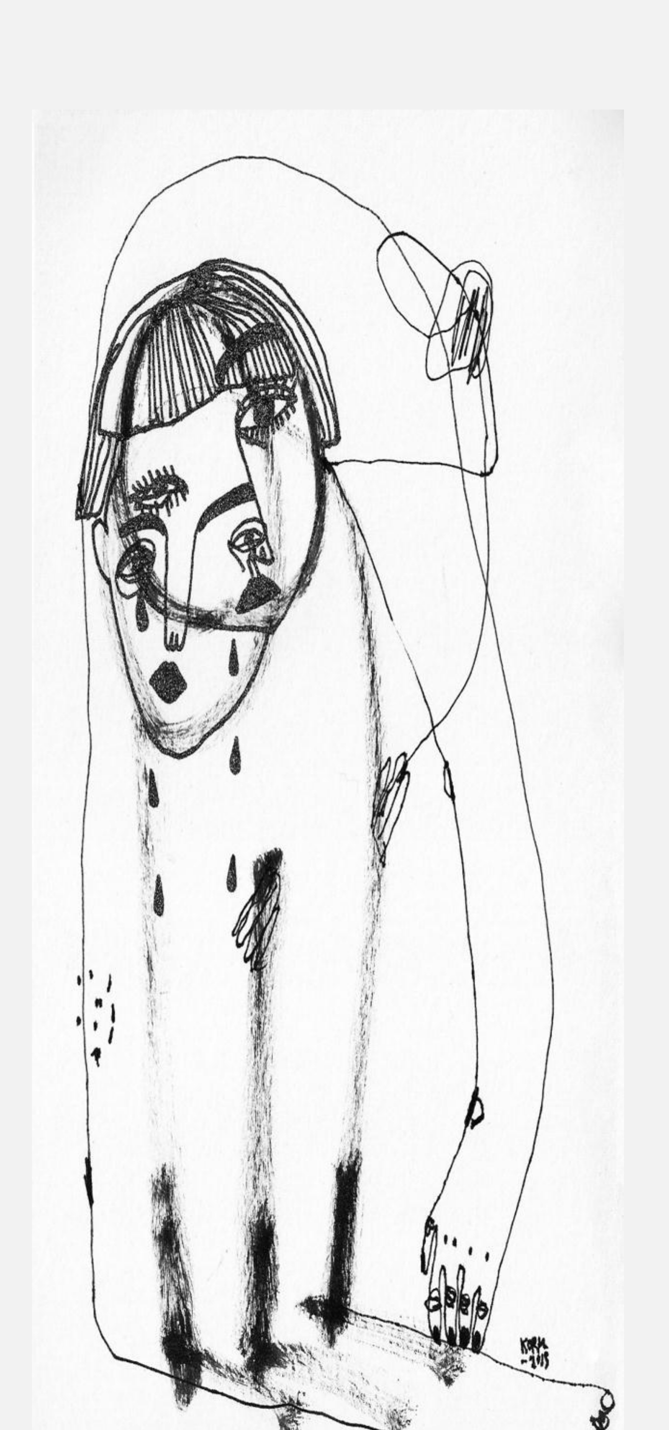
فِي مَدينَةٍ مُعاصِرَةٍ،

ولَيْسَ أَمامي مِن حَلٍّ...

تَعَقَّدَت الأُمورُ بيَنَنا لِكَوْني -بِبَساطَةٍ-

تَعِبْتُ مِن الانْتظارِ أَمامَ فاترينَةِ تَهَيُّؤاتي.

*****



فَقَدتُ كَلِماتي!

نَعَم، فَقَدتُ كَلماتي البَسيطَةَ،

كَلماتي البَسيطَةَ الَّتي أُرَدِّدُها بَيني وبينَ نفسي

في السَّرَّاءِ والضَّرَّاء

كأنَّني لم أَخْرُج من طَوْرِ المراهَقَةِ

وشَقاءِ التَّمَنِّي السَّهلِ الرَّخيصِ..

أَنظرُ إلى قَطْعٍ طوليٍّ من شَفَتَيْ مُلْهِمَتي

ومَعشوقَتي المثقَّفَةِ الحَسناءِ،

مُلقًى ضِمْنَ أَلبومِ صُوَرٍ

في صندوق «الآيباد»،

كنتُ أُجرِّبُ على مَهلٍ التقاطَ وَجْهٍ قَيْدِ التَّشكيلِ،

من بَين أَزرارِ «الكيبورد» والشَّاشَةِ ذاتِ اللَّونِ

البُرتقاليِّ،

وبِحُبٍّ جارِفٍ لِذِكراها؛

فَكُلَّما عُدتُ لإلقاءِ نَظرَةٍ جَديدَةٍ وأَخيرَةٍ

على ما صَنَعَت يَدايَ الغَشيمَتانِ؛

أُصابُ بِلَوْثَةِ ذُعْرٍ من السُّعارِ الجِنْسِيِّ

الَّذي يَضرِبُ بِقوَّةٍ في شَيخوخَتي..

لَكَمْ انْدهشتُ مِرارًا وتِكرارًا

حِيالَ تِلكَ المرأَةِ العادِيَّةِ!

هَل لهَذِهِ الدَّرجَةِ تُثيرُ بَلاهَتُها غَريزتي؟

إنَّها لم تَتعرَّفْ بَعْدُ إلى «البلوچوب»،

بَل يُمكِنُني أَنْ أجْزِمَ أنَّها أَطْهَرُ من مَريمَ العَذراء..

أَنْظُرُ لإِبِطَيْها المتباعِدَيْن،

وأفكِّر في وجودِ حيلَةٍ لأُحافِظَ على وجودِها كما تُحِبُّ

هِيَ،

مثل لَوْحَةٍ لخُنْفُسَاءَ ريفيَّةٍ مَشلولَةٍ في مَدينَةٍ مُعاصِرَةٍ،

ولَكِنْ أَلَا يَحِقُّ لي بِشَيءٍ من السِّحْرِ

أَنْ أَصِلَ لِلخَيْطِ الَّذي يَربِطُ إِبِطَيْها

لَكَمْ جَنَّنَاني إِبِطاها:

وهُما ساكِنان، وهُما مُتحرِّكان، وهُما يُلوِّحان للعالَمِ

بالهُدوءِ والطُّمَأنينَةِ،

وفي غَمْرَةِ حَماسي كَتَبتُ لها «Sms»

يا لَهُما من إِبِطَيْن!

كَم أنا مِسكينٌ.. مِسكينٌ

أَمامَكِ أَيَّتُها الخُنفُساءُ البَطيئَةُ.. البَطيئَةُ،

وهي تُعطيني دَرسًا مُضادًّا

عن الأَخلاقِ «الزِّبالَة» لبُرجوازيٍّ صَغيرٍ

سَدَّت الأَبوابَ في طَريقِه

الأَخلاقُ الجالِبَةُ للضَّجَر،

الَّتي تَكبُرُ يومًا بَعدَ يَومٍ بِمُجرَّدِ أَن أَراها قادِمَةً نَحوي،

بَدينَةً، وقَصيرَةً،

ومُسيطِرَةً على حائِطِ غُرفَتي،

بِفوضًى وقصصٍ رَديئَةٍ، وحُكْمٍ بالإِعدامِ...

أيُّ سيولٍ تَغسِلُ القُرى البَعيدَةَ

وهي ساهِمَةٌ وبَلهاءُ،

ولا تَدري شَيئًا عن ذُبولِ سَمَكَتي،

هَل يُرضيها أَنْ أَتعلَّمَ العِفَّةَ على يَدَيْها،

وأَنْ أُعْلِنَ أَنَّني عَلى استِعدادٍ تامٍّ

أَنْ أَفِيَ بِوَعْدِي وأَنْساها بِشَكْلٍ أَفْضَلَ

وأَلّا تَمْسَسْني يَدٌ عَلى الإطْلاقِ

لو وافَقَت الآنَ أَنْ أُضاجِعَها واقِفَةً

أَمامَ مِرآةِ غُرفَةٍ في فُنْدُقِ «سميراميس»، بالطَّابَقِ الثَّامِنِ،

بَيْنَما مُوسيقى الأَسانسيراتِ

تَملأُ الفَراغَ الَّذي بَيْنَ جَسَدَيْنا

لِأُمْسِكَ رَأسَها الصَّغيرَ الكَبيرَ

وأَزْحَفَ للوُصُولِ إلى إبِطَيْها مَربوطَيْن في حَبْلٍ واحِدٍ..

لَكَم شَغَلَني نَعيمُ إِبِطَيْها؛

فَهُما مَعًا شاطِئا نَجاتي،

وتِلْكَ الشُّعَيْراتُ الصَّفراءُ الَّتي سَأَلحَسُها بِلِساني

وأَنا أُدَخِّنُ سيجارَةً

لِأَخْلِطَ الحَلويَّاتِ القَويَّةَ* بِمُتعَةِ الرَّائِحَةِ الطَّيِّبَةِ

للأَمطارِ الغَزيرَةِ الَّتي تُرافِقُنا

ونَحنُ نَفُكُّ لِبَعْضِنا البَعْضِ عُقدَةَ الانْدِماجِ؛

لِمُجَرَّدِ النَّظَرِ لِإِبطَيْن وشُعَيراتٍ صَفراءَ

في مِرآةِ فُنْدقٍ مُستَأجَرَةٍ؛

فَكِلانا لاعِبٌ ومُتَفرِّجٌ،

وفاشِلانِ.. صَدِّقيني...

وسَأموتُ قَبْلَكِ، وستَندَمينَ

أَنَّكِ أَفْلَتِّ هذا العاشِقَ الصُّعلوكَ

دونَ مُلامَساتٍ حَيَّةٍ تَضِجُّ بالحَنينِ إلى

تِلكَ الرُّوحِ البَريئَةِ

المُلْتَوِيَةِ

النَّائِمَةِ هُناكَ

بِجوارِ مَيْدانٍ مُزدَحِمٍ بالمسافِرين

أَيَّتُها الخُنفُساءُ البَطيئَةُ البَطيئَةُ

كَمْ أَنا مِسكينٌ مِسكينٌ

ومَدينٌ لِعَقْلِكِ بالمعرِفَةِ

ولِجَهْلِكِ بالغُموضِ

ولِسَماعِ صَوتِ حَفيفِكِ الوَاهِنِ الضَّعيفِ

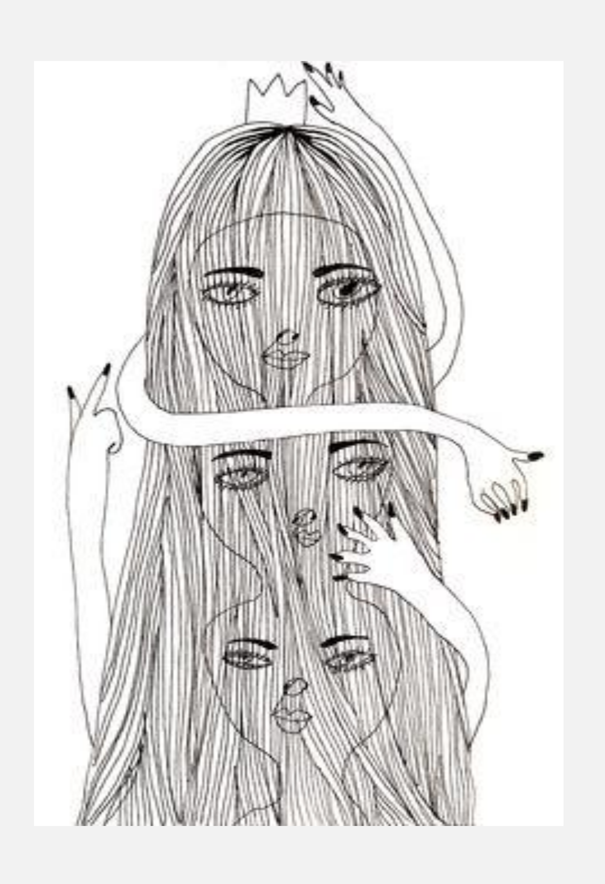
بالبَدْءِ من نُقْطَةِ الصَّفْرِ

بَلْ أَقَلَّ من الصِّفْرِ.

---

* الحلويات القوية: مرادِفٌ لكل ما يُذهِبُ العقل، ويساعد المرء أن يغيب عن الوعي.

*****



كُنَّا ثلاثَةَ آلافِ مُتظاهِرٍ،

بينَ يَمينٍ ويَسارٍ:

تَوليفَةٌ مُتناقِضَةٌ لِجَيْشٍ صَغيرٍ

من ثِمارِ الفاكِهَةِ،

بِودِّها تَأليفُ نَشيدٍ للقَضايا الخاسِرَةِ،

نَمشي مُتحاضِنين ضاحِكين

بَيْنَ ميدانِ التَّحريرِ وتَمثالِ رَجُلِ البَنْكِ،

حامِلين شارَةَ الشُّجعانِ

يُفَطًا بِمَطالِبِنا الأَربَعَةِ

(عيش.. حُرِّيَّة.. عدالة اجتماعيَّة

يسقط يسقط أحفاد حسن البنا)

وأَقدامُنا فَوقَ الإسفَلتِ تَضرِبُ بِعُنفٍ وقُوَّةٍ

تُرعِبان أَعْيُنَ البَلطجيَّةِ ومُساعِديهم

لِدَرجَةٍ جَعَلَتني أُومِنُ بالمعجِزاتِ

المعجزات يا صَديقَتي.. المعجزات

الَّتي جعَلَت من أَلْسِنَتِنا المقطوعَةِ

مَسنونَةً وحادَّةً كَسكاكينِ المطابخِ المهْمَلَةِ

لِتَنْطَلِقَ من تَحت التُّراب

ومن بَين كراكيبِ أَحواضِ غَسيلِ الصُّحون

وتُعْلِنَ بِكُلِّ فَخرٍ واعتزازٍ

أنَّنا أَبناءُ قَمَرٍ أَزرقَ

قَيْدِ التَّشكُّل

أَبناءُ ثَورَةٍ مَهزومَةٍ

قَيْدِ الشَّطْبِ والمحْوِ

أَبناءُ أَمَلٍ مَزعومٍ

وهو حائِرٌ بينَ وُجودِكِ

واخْتِفائِكِ

من أمام ناظِرَيَّ

اهْتِفي باسْمِي يا حَبيبةً مُفتَرِسَةً

لِأَراكِ في الزِّحامِ

ذابِلَةً وضَجِرَةً...

أَنتِ تَعرفينَ ما هو الحُبُّ؟

أَنْ أَتمنَّاكِ سِرًّا؛

فَتُبادِري بالإِعلاءِ من شَأني في العَلَنِ،

أَيُّ قِصَّةٍ سَتُحوِّلُني إلى مَلاكٍ بِجناحَيْن

إذا لم تَكوني بَطلَةً وقِدِّيسَةً لِخَساراتي القادِمَةِ

أَيَّتُها الثَّورَةُ

أَيَّتُها الثَّورَة

كَمْ أُحِبُّكِ...

في الماضي القَريبِ

كُنتُ مُجرَّدَ سَجينٍ في بَياتٍ شتويٍّ

بين غُرفَةٍ مُزدانَةٍ بالصُّوَرِ ومَكاتِبِ الشُّغلِ والعَمَلِ ومنح

التفرغ

ومَعارِكَ للكَراهِيَةِ لا ناقَةَ لي فيها ولا جَمَل!

مُجرَّد نَملَةٍ ساعِيَةٍ للاحتِفاظِ بالفُتاتِ

لِكَي لا تَدوسَها الأَقدامُ الكَبيرَةُ

اللَّعينَةُ

الخائِنَة...

أيَّتُها الثَّورَة

أيَّتُها الثَّورة

كَمْ أُحبُّكِ

أقدامٌ كَبيرةٌ لَعينةٌ خائِنةٌ يا صَديقتي:

قَدَما أَبي وأمي وهُما يُريدانني نُسخةً مَعيبةً مِنهُما..

قَدَما صديقٍ، لم يَكُنْ صَديقًا حَقًّا، وأَرادَ أَنْ يَبْتَلِعَني

في جَوفِه القَذِرِ المهانِ...

قَدَما امرأةٍ ادَّعَت أَنَّني زَوجٌ لها، ولَدَيْنا أَطفالٌ صِغارٌ

وهي تُروِّجُ لِذلك بَينَ الأَهلِ والمعارِفِ..

قَدَما مُديرِ الشُّغلِ وهو يَكسرُني؛

لأَكونَ مُبْتَذَلًا، وضِدَّ الجَمالِ ومُدمِنًا للمُهدِّئات..

قَدَما المجْهولِ وهو آتٍ في حادِثِ تَصادُمٍ

لأَموتَ مُبكِّرًا ولا أَحتَفِلُ بَشَيْخوخَتي والنَّجاةِ مِن

كُرسيٍّ مُتحرِّكٍ...

أيَّتُها الثَّورَةُ..

أَيَّتُها الثَّورَةُ..

كَمْ أُحبُّكِ...

أقدامٌ كبيرةٌ لَعينَةٌ خائِنَةٌ يا صَديقتي،

ولَوْلا إشاراتُكِ وتَلميحاتُكِ العَزيزةُ

ما قَوِيَ بَدَني وصارَ عَقلي ساطِعًا

لِأَتْبَعَكِ وأُحيِّيَكِ..

أَيَّتُها الثَّورَة..

أيَّتها الثَّورة..

كَمْ أُحِبُّكِ...

فأَنْتِ صاحِبَةُ الفَضلِ كُلِّه،

والنِّداءُ الأَمْثَلُ

لاختيارِ مَعارِكي الصَّاخِبَةِ

في هذا المساء الكَئيبِ،

وابْنَتي الَّتي تُشكِّل وَجهَها

في مَرايا قُبُلاتي

لِتُرافِقَني وأنا ذاهِبٌ إلى أَقْرَبِ سوبرماركت

لِشراءِ صُندوقِ بيرَة

وزُجاجَةِ كونياك تُسمَّى «نُزهَة نابليون»؛

من أَجْلِ رَقصَةٍ مُؤجَّلَةٍ لِكِلَيْنا...

هل أَنتِ حَقًّا

نُهاد حدَّاد،

وهي في راديو المدينة الصديقة تُغنِّي

«الحلوة دي قامت تِعجِن في الفجريَّة»؟

أَمْ «مارلين مونرو»،

وهي شابَّةٌ عارِيَةٌ؟

أَمْ لا هَذِهِ ولا تِلكَ؟

إذًا أَنتِ «مونيكا بيلوتشي» في فيلم «مالينا»...

أووه.. نسيتُ... كُنتُ طِفلًا صغيرًا

وأنتِ أَرملَةٌ ناضِجَةٌ لِرَجلٍ ماتَ في الحَربِ الدَّائِرَةِ

بين شَمالٍ وجَنوبٍ

وغَربٍ وشَرق...

وبَينَ جَسدَيْن يتيمَيْن لا يُرَيانِ للعَالَمِ الخَارجِيِّ

إلَّا في صُورٍ يَعلَمُ الجميعُ أَنَّها قاسِيَةٌ ومُزوَّرَةٌ،

ومُزدانَةٌ بالأَكاذيبِ..

أَيَّتُها الثَّورَةُ..

أيَّتُها الثَّورَةُ..

كَمْ أُحِبُّكِ.. شامِخَةً ومُبْتَذَلَة...

*****

جاؤوا فُرادَى وجَماعاتٍ

وتَحوَّلَ المكانُ إلى ثكنةٍ عَسكريَّةٍ...

لم أَفْزَعْ مِثلَ أَقراني من الأَسلِحَةِ الثَّقيلَةِ؛

فَأنا اعْتدتُ على السَّهَرِ بِجانِبِها

في فَترةِ التَّجنيدِ

لِدَرجَةِ أَنَّني من فَرْطِ إحساسي بالوحدَةِ

تَحتَ سَماءِ الإسماعيليَّةِ

غَنَّيتُ للدَّبَّابةِ طُوالَ اللَّيلِ

مُقلِّدًا صَوتَ جَدَّتي

وهي على وَشكِ النَّوم،

ولا تَزالُ مُصِرَّةً أَن تَضَعَ خاتمةً مأساويَّةً لحدُّوتة

«ندَّاهة قصر المليجي وآكِلِ النَّار والحَطَب»،

لأَشعُرَ بالذُّعرِ؛ فيأكُلَني المَلَلُ، وأَظَلَّ ساكِنًا في مكاني

ها هي الدَّبَّابةُ تُعاوِدُ الظُّهورَ مَرَّةً أخرى

أَمامَ ناظِرَيَّ

فَمُنذُ أَن أنْهَيتُ فترةَ الاحتياطِ كَمُلازم أوَّل

لم تُهيِّئ لي الأَقدارُ رُؤيَتَها إلَّا في حَفَلاتِ تَخَرُّجِ

الكُلِّيَّات العَسكريَّة

وفي أَفلامٍ تِجاريَّةٍ رَديئَةٍ، وقَصائِدَ عَظيمَةٍ

جاءَت وَنيسةُ اللَّيالي البَعيدَةِ

إلى مَيدانِ ثَوْرَةٍ

قَيْدِ التَّشَكُّلِ

على هَيئَةِ كابوسٍ اخْتارَني من بَيْنِ الآلافِ

لِيَنْزِعَ من بَين ضُلوعي بِذرَةَ الفَخرِ

لِتَحلَّ مَحلَّها بذرَةُ القَلَقِ المريرِ...

جاؤوا فُرادى وجمَاعاتٍ،

ومع استمرارِ تَواجُدِهم على النَّواصي،

وفي مَداخِلِ الميادِين

انْكمَشَت أعضائي

وصَغُرَ حَجمي بِشكلٍ مُدهِشٍ..

أَكادُ أُجزِمُ أنَّني صِرتُ لا مَرئيًّا، وآتِيًا من مَدينَةِ الأَقزامِ،

ولا يَتَعرَّفُ إلى ملامحي

إلَّا مَن شارَكوني في إِلقاءِ الأَلعابِ النَّاريَّةِ

فَوقَ أَدْمِغَةِ الجُنودِ.

أَبْقاني المَرَحُ بَينَ الكَرِّ والفَرِّ

والهُرُوبِ من قنابلِ الغاز

مُتفائِلًا بِدَرجَةٍ، ونادِمًا بِدَرَجةٍ أَكبرَ

عَلى زَوالِ جَسدي،

والمضِيِّ بِجَسَدٍ مُستَعارٍ،

لا يَليقُ بِوَجْهي وقامَتي

في مرايا مَعشوقَتي المثقَّفَةِ الحَسناءِ.

*****



بَعيدًا عن الصَّخَبِ،

وتَحديدًا تَحتَ يافِطَةِ مَكتبة «مدبولي»

شَرَعتُ في ارتِجالٍ مُسجَّلٍ على «اليوتيوب»؛

لأتأكَّدَ أَنَّني مَرئيٌّ، ومَوجودٌ بِشكلٍ طَبيعيٍّ

وبِلَا تَشوُّهاتٍ جِينيَّةٍ مُتَخيَّلَةٍ

عن صِغَرِ حَجمي بين الدَّبَّابةِ والجُنودِ،

هَمستُ بِصوتٍ طَيِّبٍ:

مَساءُ الخَيرِ أَيُّها اللَّيليُّون..

مَساءُ الخَيرِ يا رِفاقَ الحيرَةِ والقَلَقِ العَظيمِ...

بِودِّي -أَوَّلًا-

أَلَّا تَستاءَ آذانُكُم الطَّيِّبَةُ مِن مُبالَغاتي

فَهِيَ في نِهايَةِ الأَمْرِ وبَدْئِه

مَجازٌ كالطَّيْرِ، مَحبوسٌ في قَفَصٍ...

ولْتَعْلَمُوا جَميعًا أَنْ لَوْلا وُجودُكُم «On Line»

لخَرَجتُ عارِيًا، ووَقَفتُ تَحتَ أَعمِدَةِ الإنارَةِ

مُنادِيًا على «زرادشت»،

شاتِمًا «نيتشه»؛ لأنَّه أَحْمَقُ، سَلَّمَ مَصيرَه للمُصادَفاتِ،

ولم يَكُنْ بِمِثلِ شَجاعَةِ مَخلوقِهِ المكتوبِ في فَتْرَةِ المرَضِ،

ولا حَتَّى وهُما يَنْظُرانِ لِبَعْضِهِما البَعْضِ في مِرآةِ نُقَطِ

المغادَرَة،

والصَّالاتِ الفَسيحَةِ والمزَيَّنَةِ بِأَجودِ أَنواعِ الزُّجاجِ...

نَسيتُ أَنْ أُخبِرَكُم أَيُّها الليليُّون:

يا لَشَغَفِي اللَّا نِهائيِّ بالزُّجاجِ المنثور؛

زُجاجِي أنا،

وأُمِّي زُجاجِيَّةٌ، وأَبي زُجاجِيٌّ،

وأَبنائي زُجاجِيُّون،

وكَلِماتي زُجاجيَّة،

ومُؤلَّفاتي أَكوابٌ وفَناجِينُ وفاترينات وأَسطُحُ ونَوافِذُ

ومَرايا وحَيوانات مَنَوِيَّةٌ ومَواقِعُ للصَّداقَةِ.. و.. و..

و...

ووووووو...

أيُّها اللَّيليُّون: لَكَمْ سَخِرْتُ من حالي

ووَقَفتُ وكَأنَّني فَوقَ خَشبَةِ مَسرَحِ المراهَقَةِ،

مُنادِيًا عَلَيكُم:

تَعالوا.. حُفاةً عُراةً، تَحتَ أَعْمِدَةِ الكَهرباءِ

لِنَقرَأَ مَرثِيَّةَ «نيتشه» عن الوُجودِ...

كَمْ أَنْتَ عَظيمٌ يا «زرادشت»؛

تَهْتِفُ.. يَهْتِفُ.. تَهتِفين.. يَهْتِفان..

يَهْتِفون.. يَهْتِفْنَ:

كَمْ أَنْتَ عَظيمٌ يا «زرادشت»...

*****

أيُّ زاوِيَةٍ مِن الكَلامِ والارْتِجالِ

أُوازِنُ بِها بَينَ التَّجرِبَةِ والكَلِماتِ

وأَخرُجُ من غُرفَةِ الزَّمَنِ

حامِلًا جُثَّتي...

مُوسيقايَ آخِذَةٌ في البُطءِ،

واحْتَرتُ بِقَدَمَيَّ:

هَل أَتَراجَعُ لِلخَلْفِ بِهِما،

أَمْ أَتَقدَّمُ للأَمامِ؟

وفي كِلتا الحَالَتَيْن يَدفَعُني الأَمَلُ

بِقَبْضَتِه

-فَقَط- لِأُغَيِّرَ مَوقِعي،

وأَنْخَرِطَ في تَأدِيَةِ أَبْسَطِ واجِباتي

بِرَفْعِ أَصابِعي العَشْرِ أَمامَ قِناعِ وَجهي؛

لِأَصُدَّ تِلكَ اللَّكَماتِ الوارِدَةَ في قائِمَةِ صَديقَتي اليَومَ

بين جدران العالم الافتراضي.

*****

أَنا والقاهِرَةُ صَديقانِ

بِبساطَةٍ هِي مَدينَةٌ مَبروكَةٌ،

لَم تَمْنَحْ جَناحي سِوى تِلكَ القُوَّةِ الَّتي يَمْنَحُها تَعاقُبُ

اللَّيلِ والنَّهارِ

لِطائِرٍ قَرويٍّ

يَرْكُلُ القَريَةَ لإعادَةِ اكْتِشافِ أَدواتِهِ

كَفلَّاحٍ زَهَدَ الحُقولَ

وبِنَفسِ الدَّرجَةِ تَرْكُلُه المدينَةُ لِيَتَعَلَّمَ

أَنْ يَكونَ إِنسانًا ضِمنَ جَماعاتٍ ضغط صَغيرَةٍ

كَناسِكٍ اخْتَرَعَ حَبيبةً في بالِهِ

وتَعرَّفَ إِليها، وشاكَسَها وأَغْضَبَها،

ثُمَّ ذابَت بَينَ أَسنانِه مِثلَ قِطعَةِ ثَلْجٍ

في طَريقِها لأجْنِحَةِ الكحولِّ وكماماتِ الوقايَةِ من

الذُّبول...

أنا والقاهِرَةُ صَديقانِ..

بَلَغتُ الخمسينَ

ولا أَعرِفُ بالضَّبْطِ كَمْ عُمرُها؛

فَمَن الَّذي يَنْشَغِلُ بالزَّمَنِ

أَمامَ الجَمالِ النَّيِّئ لابْنَةِ القِبْطِ

وهي قَيْدُ التَّشكُّلِ

في مِرآةٍ للزِّينَةِ والمَرَحِ.

القاهِرَةُ -كَأيِّ مَدينَةٍ مُلهِمَةٍ-

تُحافِظُ على دَوائِرِ المصادَفاتِ؛

لِذا.. ضَروريٌّ للمَرْءِ البَديعِ المدْهِشِ الَّذي لا يُؤكَلُ رَأسُه

أَنْ يَظَلَّ حَبلُ تَوازُنِه الدَّاخلِيِّ مَشدودًا على آخِرِه

بالبَحْثِ الدَّائِمِ عن صَوتٍ مُستَعارٍ

يَمْنَحُهُ فَضيلَةَ التَّسَكُّعِ

وحيدًا مُزدانًا بالرَّغبَةِ في أَنْ يُولَدَ بالقُرْبِ من تَمثالِ الرَّجُلِ العَظيمِ.

أَنا والقاهِرَةُ صَديقانِ،

نُعلِنُ أَنَّ الضَّجيجَ والشَّائِعاتِ رَفيقانَا

ونَحنُ عَن بُعْدٍ نَتَلصَّصُ على بَعْضِنا البَعْضِ،

يُحاوِلُ كُلٌّ مِنَّا أَنْ يُثبِتَ لِنفسِه

قيمَةَ العَطاءِ مُقابِلَ قِيمَةِ الأَخْذِ

الَّتي تَرَسَخَت وأنا ذاهِبٌ لِلقاءِ مَلِكَةٍ نائِمَةٍ

على قارِعَةِ الطَّريقِ،

وفي قَلْبِ مَيدانٍ مُزدَحِمٍ بالمسافِرين.

*****

قَلِقٌ،

وَدَّعتُ المدينةَ القديمةَ،

وبِكامِلِ وَعْيي أَعلَنتُ أَنَّني مُفْلِسٌ،

وَلَدَيَّ قَدَمٌ عَرجاءُ

أَفْسَدَت الأَقدارُ بها أَيَّامي؛

فَلَمْ يَعُدْ بِإمكاني الرَّكْضُ بَينَ «مارشال المحطَّة»*،

وكافيه «أندريَّا»، وساحَة ميدان المحطة في آنٍ واحِدٍ.

بودِّي الجلوسُ فوقَ كُرسيٍّ هَزَّازٍ

خَلفَ زُجاجِ القاهِرَة المنثور؛

لِأقولَ نُكْتَةً لمعشوقَتي المثقَّفَةِ الحَسناءِ..

نَعَم.. رَكبتُ أُتوبيس «شرق الدِّلتا»،

وَحَزمتُ حَقائِبي لِسَبَبٍ غَيرِ مَعقولٍ:

أَنْ أُطَوِّرَ نُكتَتي المفضَّلَةَ يَومًا بَعدَ يَومٍ.

تَفاصيلُ المدينَةِ القديمَةِ

حَوَّلَت حَياتي إلى جَحيمٍ لِإرضاءِ امْرَأَتَيْن

أَو أَكثرَ،

وبَيْنَهُنّ صِرتُ مسخًا

لا أَرغَبُ سِوى في تَرديدِ نَفسِ النُّكتَة.

---

* مارشال المحطة، أندريا، ميدان المحظة: هذه الأماكن في مدينة المنصورة.

*****

اعْتَدْتُ في صِباي الخُروجَ مِن غُرفَتي في بَيتٍ من الطِّينِ

مِن أَجلِ عُبورِ النَّهرِ في مَركَبٍ، والعَودَةِ بِجَسدي من

رِحلَةِ المشْيِ

فَوقَ المياه.

بودِّي أَنْ تُروَى أَنحائِي الشَّبيهَةُ بالخَرابَةِ،

أَتَّخِذُ مِن رُكني المفضَّلِ

في تِلكَ المساحَةِ الشَّاسِعَةِ

خُرمَ إِبرَةٍ لِتَقسيمِ الزَّمَنِ:

أَرْبَعِ سَنواتٍ للدِّراسَةِ، وثَلاثٍ لِفَترَةِ التَّجنيدِ،

وسَبْعٍ للشِّفاءِ مِن مَصيرِ أَنْ أَكونَ قَعيدَ الفِراشِ،

وسَبْعٍ أُخرى للتَّخَلُّصِ مِن بائعة هوى في أحشائي

وبين ضلوعي..

تبتكر حبًّا يساريًّا من طرفٍ واحدٍ لمعشوقَتي المثقَّفَةِ

الحَسناءِ

وتلك الشيوعية الثائرة اللعينة،

وبَقيَّةِ العُمرِ للتَّسلِيَةِ بَينَ الكِتابَةِ والقِراءَةِ والفُرجَةِ على

ذَلِكَ البُرجوازيِّ الصَّغيرِ الَّذي أَفْلَتَهُ الموتُ المحقَّقُ من

بَين يَدَيْهِ

ثلاثَ مَرَّاتٍ، ونَجَا، أَوْ بالأَحْرَى أَحَبَّ الحَياةَ...

أيُّ اخْتِصارٍ يُفضِي إلى باطِلٍ..

ظَلامٌ يَأْكُلُ النُّورَ الَّذي بِداخِلي

لِأَنجوَ مِن البَقاءِ عَلى حافَّةِ الخَطَر.

*****

أَهُناكَ مَعنًى أَكبرُ من كَوْنِ المرءِ صارَ عاشِقًا لِذاتٍ

مَجهولَةٍ

ذاتٍ مَجهولَةٍ لا تَعرِفُ سِوى لَوْنِ عَيْنَيْهِ

وهُما يَنظُرانِ بِنَهَمٍ إلى ثَدْيَيْهَا وبابِهِما؟

لَكَمْ خَلَطْتُهُما بالطَّعامِ الشَّهِيِّ،

واستَقَرَّا في مَعِدَتي

حَتَّى يُهضَما مِثلَ وَرْدَتَيْن ذابِلَتَيْن لِعَجوزٍ

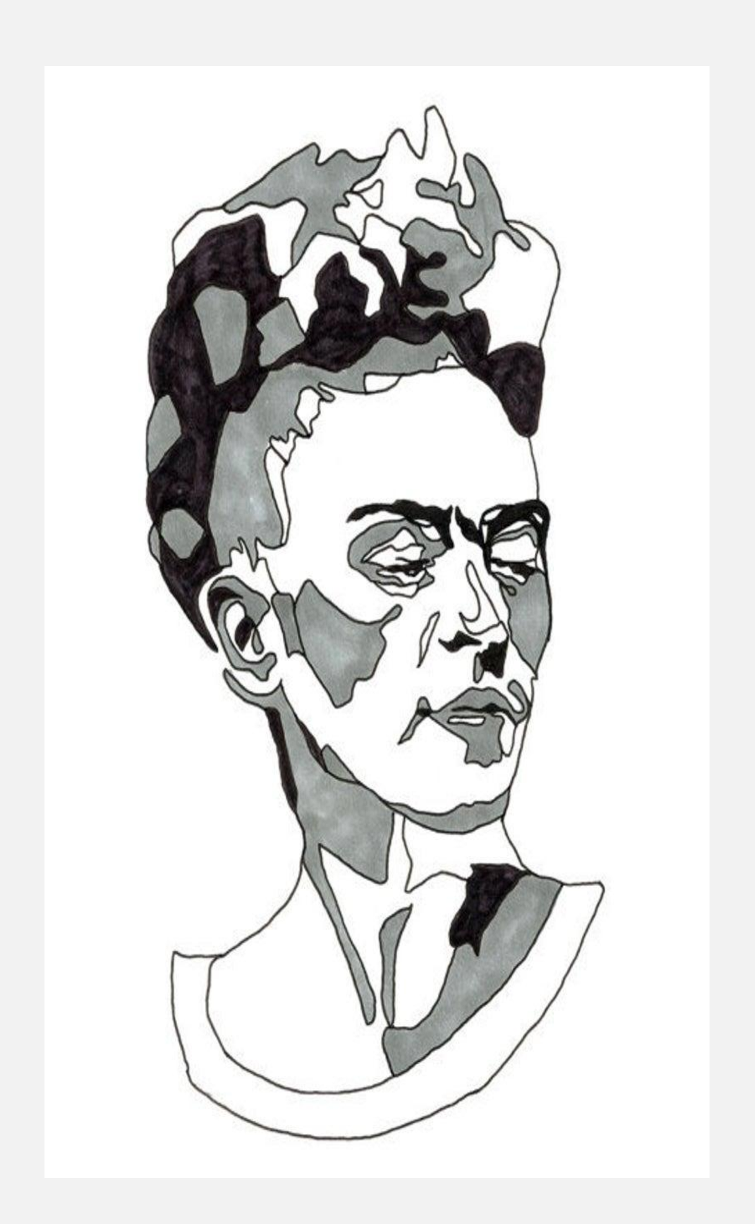
لا تَعرِفُ الخَطَأَ

وتُجيدُ الصَّوابَ وهِيَ تُنكِّسُ رايَتَها الخَفَّاقَةَ

مِن أَجلِ اللَّا شَيءٍ

في وَجْهِ رَجُلٍ مَشغولٍ بِشَيْئِهِ النَّائِمِ بَينَ فَخِذَيْه...

******



إلى أيِّ حقبَةٍ من الصُّوَرِ أَنتَمي؟

لا أتَساءَلُ مِن بابِ التَّعبيرِ عَن هُويَّةٍ مُطَلْسَمَةٍ؛

أَنا ابْنُ الدُّنيا

الدُّنيا الواسِعَةِ الَّتي جَعَلَت من قَلبي

مَخزَنًا للمَوَدَّةِ...

أَحبَبتُ في القَريَةِ تَدويرَةَ قَمَرِ السَّماءِ

وهُو حُرٌّ بلا إطارٍ أو بروازٍ،

وكَم سَئِمتُ في المدينَةِ

–وتَحديدًا بين جدرانِ مَطعَمِ «فلفلة» السِّياحِيِّ–

تِلكَ اللَّوحَةَ، وذَلِكَ الإطارَ

اللَّذَيْن يَظهَران ويَختَفِيانِ

بِمجرَّدِ حُضورِ مَعشوقَتي المثقَّفَةِ الحَسناءِ

لِتناوُلِ شوربَةِ العَدْسِ في أَيَّامِ الآحادِ

بِصُحبَةِ كاتِبٍ تَدَّعي أَنَّه أَبوها الرُّوحيُّ،

ولا عَلاقَةَ بَين رَسمَتِها الَّتي تَظهَرُ وتَختَفي

والرَّجُلِ الَّذي يُرافِقُها

كُلَّما وَلَّيتُ وَجهي باتِّجاهِ مِنضَدَتِها،

ثُمَّ مارَسَت عَينايَ فِعلَ الوَقاحَةِ باتِّجاهِ وُجودِها؛

فَأَبوها الرُّوحيُّ

فَضاءٌ طَيِّبٌ تُشِعُّ

من بَين ثِيابِهِ مُعضِلَةُ مُكافَحَةِ المَلَلِ:

لِحْيَتُهُ دالَّةٌ على أَنَّه يَساريٌّ،

مُؤمِنٌ بِذلِكَ الامْتدادِ الَّذي يَتَّسِعُ لِتلاقي بُحَيرَتَيْن

راكِدَتَيْن،

وبأنَّ الأَشياءَ تَحدُثُ بالصُّدفةِ...

أَيُّ نَبْتَةٍ في مَصفوفَةِ مَشاعِرِي

تُحرِّكُني هَكذا، وتَجعلُني مُبالِيًا بِوجهِ ذاتٍ مَجهولَةٍ؟

أَيُّ ضَجَرٍ أَلَمَّ بِها،

وهِيَ كَثيرةٌ أَمامي، بِنُسخَةٍ واحِدَة؟

لَطالما تَخَيَّلتُها عَروسَ السِّجنِ «علا شُهبة»*

وهي جالِسَةٌ

بكامِلِ مكياچِها وثَوبُها الشَّفَّافُ مُضاءٌ...

عَروسُ السِّجنِ،

الَّتي زُجَّ بِها داخِلَهُ، وتَناوَبَ رِعاعُ السُّلْطَةِ الإسلاميون

نَزْعَ ثيابَها، واغْتِصَابَها أمامَ قصر «الاتحاديَّة»...

أَيُّ رابِطٍ بَينَ ابْنَةِ التَّربيَةِ الصَّارِمَةِ

وهذا الخاطِرِ؟

رُبَّما ذَلِكَ الخَلَلُ في إحدى عَينَيْها!

(لا أَتَذَكَّرُ مُطلَقًا: هَل هِيَ اليُمنَى أَمْ اليُسرَى)

رُبَّما ذَلِكَ الخَوْفُ البادِي عَلَيها؛

إيذانًا بِبَدْءِ انْطلاقِ كلامٍ لَيسَ مَوزونًا، ولَيسَ مُقَفًّى

كلام شبيه بالزجاج المنثور

مِن بَين شَفَتَيْها

إلى الميكروفون

أَمامَ جَمْعٍ في أُمسيَةٍ شِعريَّةٍ...

رُبَّما لأنَّني نَسيتُها كُلِّيَّةً،

وأَنْتَقِمُ من مَحَبَّتِها الجارِفَةِ بإعادَةِ تَأليفِها

على طَريقَةِ الخَطَّائين

الَّذين يَهتِفون عادَةً بَينَما يُحاصِرُهم الشُّروقُ السَّاطِعُ

للعَقلِ اللَّامِعِ**...

نُقطَة.. ومن أَوَّل السَّطر!

مِسكينَةٌ تِلكَ الذَّاتُ المجهولَةُ؛ تَخافُ حَتَّى من تَخَيُّلِ

نَفْسِها

فَتاةً بارَّةً للثَّكناتِ العَسكريَّةِ...

إنَّها تُضاعِفُ مِن وَقْعِ التَّفاصيلِ العادِيَّةِ

لِيَظْهَرَ الضَّعفُ في لَمحِ البَصَرِ،

ويُسَرَّ بِه النَّاظِرون لِوجهِ الملاَكَةِ؛

نَجاةً مِن نَبْتَةِ التَّسَلُّطِ الَّتي كَبُرَت مَعَها،

وبِداخِلِها، بلا حَوْلٍ ولا قُوَّةٍ...

هي ابْنَةُ الانْضِباطِ الَّذي صارَ حَبْلًا

أَشُدُّه باتِّجاهي؛ فَتَلوذَ نُسخَةٌ مِنها

إلى الجُلوسِ بِجانِبِي

على نَفْسِ المنضَدَةِ...

يا لَشقائِي.. أَمْتَلِكُ الآنَ

نُسخَتَيْن من ذاتٍ مَجهولَةٍ:

أَمامي، وبِجانِبِي...

ولَو أَنْصَتُّ بِدَرَجَةٍ أَكبرَ لِصَوتِ مُوسيقاها الَّذي يَرِنُّ

عادَةً

في وَضَحِ النَّهارِ؛

بِإمكاني أَنْ أَصِلَ بِنُسَخِها للرَّقمِ عِشرين

أَيْ إنَّها أَكثرُ قُدرَةً في النَّسخِ والاستمرارِ من عائِلَةِ

«لويس الرابع عشر»***

الملَقَّبِ بالمِلِكِ الشَّمسِ، ومَلِكِ فرنسا،

وما مِنْ أَحَدٍ بَعدَه...

---

* علا شُهبة: فتاة يسارية، في الواقع تم انتهاك جسدها في السجن الذي أعده الإسلاميون في ليلة اغتيال الكاتب الصحفي الحسيني أبو ضيف وآخرين.. فيما عرف بمظاهرات الاتحادية.

** «الشروق الساطع للعقل اللامع»: اسم لفيلم إيطالي.

*** أي إنها أكثر قدرة في النسخ والاستمرار من عائلة «لويس الرابع عشر»، إلى آخره بين دِفَّتَي النص: معارضة لقصيدة غنائية لـ «چاك بريڤير»، بعنوان: «العائلات الأرستقراطية».

*****



لا أُومِنُ بما يُقالُ عَنها:

هَل هِي ثَورةٌ أَمْ نِصفُ ثَورةٍ؟

أَمْ مُجرَّدُ انتفاضَةٍ وانْتَهَت كما يَدَّعي المؤرِّخون الجُدُد؟

لا أُومِنُ أَنَّها جُثَّةٌ...

لا أُومِنُ أَنَّها مَيِّتَةٌ...

لا أُومِنُ أَنَّها شَقيقةُ المقبَرَةِ...

إنَّني -وبِكامِلِ قُوايَ العَقليَّةِ- أَسْمَعُها تُناديني من وَقتٍ لآخَرَ:

تَعالَ.. المسْني،

أنا حَبيبَتُكَ، وسيميوطيقاكَ العَجيبَةُ،

مَهزومَةٌ ومُستَمرَّةٌ،

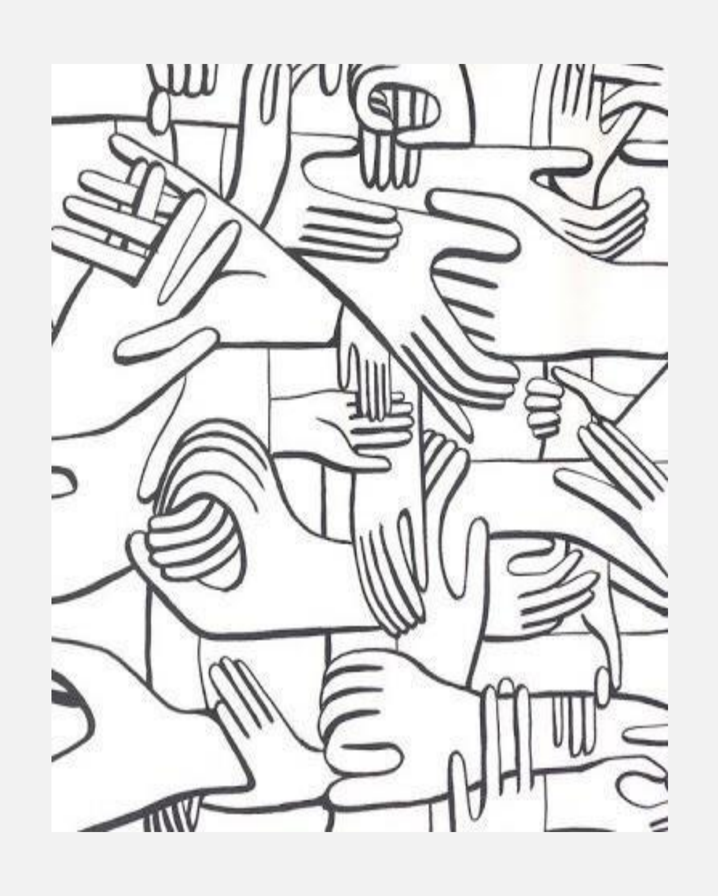
مَستمرَّةٌ ومَهزومَة...

دَعكَ من دُعاباتي، وانْهَضْ من جَديدٍ...

ما الَّذي أَصابَ جَسَدَكَ الضَّخمَ الكَبيرَ،

وأَصواتَكَ الأَحَدَ عَشَرَ، وتِلكَ المدينَة؟!

*****



صَوتٌ أوَّل:

صَنَعَ اللّٰهُ لَكُم القَرَفَ..

أَتَسمَعُونَني؟ صَنَعَ اللّٰهُ لَكُم القَرَف...

جِئتُ من الحَواري والأَزِقَّةِ،

لا كشاعر شاب مُتضَخِّمِ الوجْدانِ،

بل بَسيطٍ وعاديٍّ...

إنَّني –وبِكُلِّ بَساطَةٍ– أَكرَهُ الوُشاةَ والبَصَّاصينَ،

ومُحِبِّي بَطاقاتِ التَّموينِ الخَضراءِ.

ثَمَّةَ عُقدَةٌ أَبَديَّةٌ شَبيهَةٌ بِأقوالِ أَبي البلاستيكيَّةِ

عَلى طاوُلَةِ العَشاءِ،

لَطالَمَا تَخَيَّلتُه وهُوَ يَمضُغُ الطَّعامَ الرَّديءَ

ويَعِظُنا جالِسًا –ونَحنُ جُمهورُه المغلوبُ–

عن حمايته لِضَعْفِنا كَأُسرَةٍ بائِسَةٍ

من القَتَلَةِ واللُّصوصِ وقُطَّاعِ الطُّرُقِ،

مُشيرًا بإصبَعِهِ إلى لَوحَةِ الجُوعِ الَّتي قَصَّها من مَجلَّةِ

«الفنون»،

وعَلَّقَها مُكَبَّرَةً، وعن جَهْلٍ،

في وَضْعٍ مَرئيٍّ لنا بِغُرفَةِ المعيشَةِ؛

لِنُعدِّدَ أَفضالَه الَّتي لا تُعَدُّ ولا تُحصَى،

كَعامِلٍ في وَزارَةِ الثَّقافَةِ وكاتب تقارير في رؤسائه

يَكِدُّ ويَعْرَقُ في المكاتِبِ المكيَّفَة

لِجَلْبِ النُّقودِ...

ثَمَّةَ رائِحَةٌ نَتِنَةٌ تَتكاثَرُ وتَنتَشِرُ وتُزْكِمُ أُنوفَنا

كُلَّما هَمَّ أبي بِرَصِّ أَلفاظِ الخاتِمَةِ

لِيَظَلَّ حَتَّى آخِرِ العُمرِ وبُلوغِ الأَجَلِ

يَلفُّ ويَدورُ مُتَحدِّثًا بالنِّيابَةِ عَنَّا، وباسْمِنا،

مُنتَظِرًا -مِثل أَيِّ كَلبٍ مَسعورٍ- في زِيِّ الوُشاةِ

والبَصَّاصين،

ومُحِبِّي بَطاقاتِ التَّموينِ الخَضراءِ،

رِدَّةَ فِعْلِنا كَمُسالِمِين وعُزَّل،

يَلتفُّون حَولَه مَذعورين،

ولا يُجيدون سوى إلقاءِ النِّكاتِ البَذيئَةِ،

وسَبِّ العالم

لِذلِكَ اليَومِ الَّذي خُلِقْنا به في تِلكَ البُقعَةِ

الشَّبيهَةِ بِقاعِدَةِ الحمَّاماتِ المنزليَّةِ في بُيوتِ الفُقراءِ،

وأَبي الكذاب، وأَشباهُه مِنْ أَنصافِ الرِّجالِ

قصص متعفِّنة مُخيفَةٌ من حَديدِ الزَّهْر،

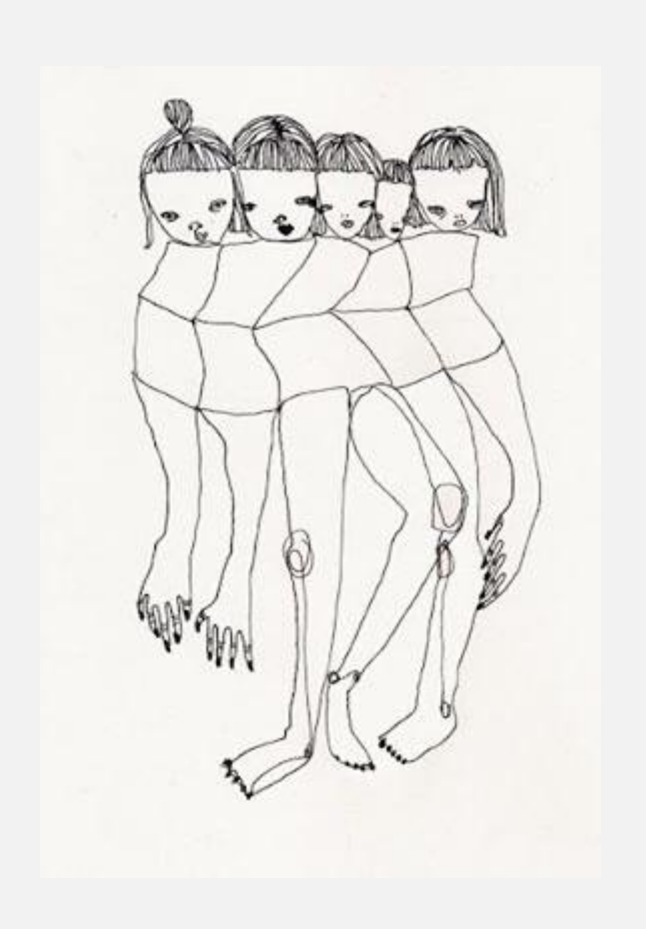
قصص متعفِّنة سَهلَةُ الكَسْرِ،

قصص متعفِّنة ومَواسيرُ للصَّرْفِ الصِّحِّيِّ،

ولِتلكَ الرَّائِحَةِ،

وللخَريطَةِ كُلِّها، الَّتي يَغيبُ بِداخِلِها عَلَمُ البلادِ.

*****



صَوتٌ ثانٍ:

اسمي نادين،

وَصَفني نبيل ذاتَ مَرَّةٍ

أمامَ أَصدقائِهِ وصديقاتِهِ

أنَّني سندريلَّا، مثل سُعاد،

لَيسَ مُهمًّا بالنِّسبَةِ لي

في هَذِهِ السَّاعَةِ، وهذا العام،

أَن أُحدِّثَكُم بعد تَدخينِ سيجارَة «لايت»–

مَن نبيل، ومَن سعاد، ومَن أنا؛

لأنَّني مَفقودَةٌ أمامَ قصر «الاتحاديَّة»،

خَطَفَتني يَدَا اللهِ إلى التَّجرِبَةِ المريرَةِ،

بينما شَعبٌ ضِدَّ شَعبٍ يَتقاتَلان،

وأنا أُفكِّرُ بِروحٍ تَتَّسِعُ لَهُما

في تَجهيزِ عيادَةٍ مَيدانيَّةٍ بين الكَرِّ والفَرِّ؛

لِعلاجِ المصابين

مِن إغماءاتِ الغازِ المسيِّلِ للدُّموعِ،

والشَّظايا المتطايِرَةِ،

ورَصاصِ القَنْصِ،

ثُمَّ في لحظَةِ إشراقٍ

أرَدتُ أن أكون أُمًّا لهم جميعًا،

كَيفَ لجسدي الضَّعيفِ النَّحيلِ

احتمالُ مَعركَةٍ دامِيَةٍ...

لا أتذكَّر نبوءةً في طُفولتي

مِن عَرَّافَةٍ أو شَيءٍ من هذا القَبيلِ

عن إمكانيَّةِ أَنْ تكونَ لِوَردَةِ رَحِمي الذَّابِلَةِ

هذا السِّحرُ الخَفيُّ...

هل اختارَني العَليُّ القديرُ

لأكونَ صورةً مَعكوسَةً لمريم العذراءِ

وهي جالِسَةٌ حَزينَةً

تَحتَ نَخلةٍ في ساحَةِ الدَّمِ

وآلامُ المخاضِ مُوسيقايَ الَّتي أَرْتَجِلُها

كَي لا أَتوقَّفَ وَسطَ دراما رخيصَةٍ

لِشَعْبَيْن من كائِنات الزُّومبي

يَتقاتَلانِ؟

مَن دَفَعَ كُلَّ هؤلاءِ من بين ساقَيّ الثَّوريَّتَين

كأطفالٍ حَديثي الولادَةِ،

لا يَعرفون شَيئًا عن الأيديولوجيا،

لا يَعرِفون شيئًا عن الدِّينِ،

لا يعرفون شيئًا عن اللُّغَة،

لا يعرفون شيئًا عن اللُّغة المضادَّة،

لا يعرفون شَيئًا عن الصِّفر،

لا يَعرِفون شيئًا أَقلَّ من الصِّفْرِ،

لا يعرِفون شَيئًا عن الصِّراع الطَّبَقيِّ على الطَّريقَةِ

الطَّاويَّة*،

لا يعرفون شيئًا عن الثَّورَة،

لا يعرفون شيئًا –حتَّى– عن الله،

الَّذي لولاه لما كُنتُ أُمًّا لهم جميعًا...

أُمًّا.. أُمًّا.. أُمًّا بِرِداءٍ بَشَريٍّ

من أَجلِ خَلاصِهِم الحالِمِ الأَكيدِ...

أَيُّ لَعنَةٍ حَلَّت بِأطفالي!

أَيُّ لَعنَةٍ حَلَّت بالبَراءَة!

أيُّ لعنةٍ حَلَّت بِمَوْتايَ!

أيُّ لعنةٍ حَلَّت بميلادِ مصرَ الجديدةِ!

أَليسَ من حَقِّي –كَمُواطِنَةٍ صالِحَةٍ– أَنْ أُمْسِكَها

وأَتَأكَّدَ من وُجودها؟

أَمْ أَنَّني غَرقتُ في خُطوطٍ على دوائِرِ الصِّبا؟**

ولَيْسَ لَديَّ أَيُّ رَغبةٍ في الكَلامِ سِوى عن نَفْسي

وأنا مَلفوفَةٌ في قُماشَةٍ بيضاءَ

جاذِبَةٍ للفَراشاتِ الكَبيرةِ الضَّخمَةِ الملوَّنةِ باتِّجاهِها،

وفي نهايَةِ هَذِه الرِّحلَةِ القَصيرَةِ خارِجَ غُرفَةِ الزَّمَنِ

أَفُكُّ قَيْدِي..

إنَّني أَتَبخَّرُ..

إنَّني أَطيرُ

لِأُطعِمَ أَفواهَهُم الجائِعَةَ بالحليبِ السَّماوِيِّ

لَعَلَّ وعَسَى!

---

* الصراع الطبقي على الطريقة الطاوية: تتقاطع الجملة مع اسم ديوان لعبد الكبير الخطيبي.

** خطوط على دوائر الصِّبا: إشارة إلى كتاب «خطوط على دوائر»، دار شرقيات.

*****



صَوتٌ ثالِثٌ:

أَعمى بِمُعجِزاتٍ..
لَستُ طه حسين
لَستُ «الشِّيخ حُسني»
بين دِفَّتَيْ كتابٍ مُلقًى على رَصيفِ «سور الأزبكية»
ومَفتوحٍ من مُنْتَصَفِه على وَصفٍ لكاتدرائيَّةٍ شَبيهَةٍ
بالصَّرْحِ
في حَيِّ «الزَّمالك».
أَعْمَى بِمُعجِزاتٍ..
لستُ ذَلِكَ الرَّجُلَ البَسيطَ الَّذي تَهتزُّ خِصيَتاهُ من
الذُّعْرِ
وهو يَعبُرُ للضِّفَّةِ الأُخرى بينَ العَرَباتِ المسرِعَةِ
في مُدُنٍ لن تَجِدَ فيها احترامًا لِعَظَمَةِ الإنسانِ.
أَعمَى بمعجِزاتٍ..
لَستُ ذَلِكَ العَجوزَ الَّذي حَكَتْ عَنه امرأةٌ ناضِجةٌ
لا تَتكلَّمُ لُغَتي،

وكَيفَ ظَلَّ يَعشقُ وَجهَ جَدَّتِها ويَرسُمُها في فراشِ الحُبِّ
بأَصابِعِه العَشرةِ الَّتي تُلوِّنُ لها العالَمَ كُلَّ مَساءٍ
في قَريَةٍ فَقيرةٍ ونائِيَةٍ بالجنوبِ الإيطاليِّ*.
أَعمى بمعجزاتٍ..
ولا أَعرِفُ ضَبْطَ نَغمةِ صَوتي لأُحدِّثَكم
هادِئًا ومُبتَسمًا وخاليًا من التَّضحيَةِ بِبَصري.
أومِنُ بِتَميمةِ التِّكرارِ ولَعنَةِ الافْتِراضِ.
فَقَدتُ عَينيَّ في زَمَنَيْن مُختلِفَيْن،
وفي نَفسِ المكانِ؛
لأكونَ رَمزًا للأَجيالِ القادِمَةِ،
ويُرَدَّدَ اسمي في قصَصِ الغَرامِ
بين جَبَلٍ وبُركانٍ،
وحَنجَرَةٍ وهُتافاتٍ،
ورَئيسٍ مخلوعٍ، وفَراغِ زنزانةٍ لم تَطَأهُ قَدماهُ،
وبين الخَيطِ والإبرةِ في لَوحَةٍ مُعادِيَةٍ للاستِعمارِ...
إنَّني، وبِكُلِّ صَراحَةٍ
يُسَرُّ مَن يَراني ماضِيًا بِمُساعَدَةِ ابْنَةِ هالة نمر

وبين يَديَ الشَّريفتَيْن كتابُ الرَّجُلِ
لأَتخيَّلَ «وما كانَ رَبُّكَ نَسِيًّا» بمثابَةِ عُكَّازٍ لي بِحجمِ
الأَرضِ
وهي تَدورُ.. وتَدورُ.. وتدور...

---

* صديقة الجنوب الإيطالي: المستعربة تريسا بيبي.

*****



صَوتٌ رابِع:

في اتِّجاه «مُجمَّع التَّحرير»

أُؤلِّف زَمني الخاصَّ بالشَّخبَطة فوقَ الجُدرانِ،

انتظرتُ وجه سناء لأرسمه دفعةً واحِدةً،

وفَشلتُ لِلَحظاتٍ أن أكونَ شاعِرَها العَظيمَ؛

لإيماني المطلَقِ بِنَفسي،

أَمامَ انقطاعِ الوَحيِ والإلهامِ

أَهربُ مَذعورًا من كَثرَةِ الانْغِماسِ

أُؤجّل الاكتِمالَ وأَذهبُ لِلنُّقصانِ

بِمَحضِ إرادَتي،

وأَقذِفُ بِوَجهِ سَناء في الهواء،

لأعودَ به إلى غُرفَتي،

وأَضَعَه أمامي فَوقَ كَومَةٍ من الكُتُبِ، وأسطوانات

«بينك فلويد»؛

فَيظهَرَ في مَرايايَ الدّاخليَّة،

أُغادِرُ الغُرفَةَ؛

لمزيدٍ من الانتظارِ وشُربِ الكحول

مُصادَفَةً أَجلِسُ في بارٍ شعبيٍّ،

على طاولة السَّهرَة

بجانِبِ امرأةٍ تَحفظُ القَصائِدَ عن ظَهْرِ قَلبٍ،

وبِلا مُناسَبَةٍ تقول لي كلامًا سَخيفًا عن حَتميَّة الإلهام،

وهِيَ تُلوِّنُ شَفَتَيْها المطابِقَتَيْن وهما قَيْدَ التَّشكُّل

بأحمر شفاهٍ لمحتُه في وَجهِ سَناء،

وهي تُردِّد الهتافَ في المظاهرات...

ها هِي أيَّامي تتحوَّل إلى جحيمٍ،

ووجهُ سناء يُطارِدُني كمُعجِزَةٍ.

إنَّني، وبكامل وَعيي،

حَريصٌ على مُضاجَعَةِ الثَّواني والدَّقائِقِ والسَّاعات

لِدرجَةِ الاستيقاظِ من النَّوم، كأنَّني سَجينُ رَسمَةٍ لِوَجْهٍ،

وقَدَماي مُتورِّمتان؛

فَهُما لا تَكُفَّان عن المشْيِ في بَهيمِ اللَّيلِ،

دونَ رَأسي وعُنُقي وذِراعي،

كَأنَّ ما يَربِطُني بباب اللوق حَرَكَتُهُما

من أَجلِ البحثِ عن ظِلالٍ لأَرَى وجهَ سناء

وهو ساقِطٌ من أعلى لأسفل

في نُزهَةٍ ربَّانِيَّةٍ خارجَ مُعسكَراتِ الاعتقال؛

فتُلاحِقه عيناي، ويَدايَ تَلتقطانِ خَيطًا لمعنًى

عن جماعاتِ ضَغطٍ صغيرةٍ*،

شَبيهةٍ بالبَجَع البَرِّيِّ الَّذي اختَرَعَه «وليم بتلر ييتس»

في لَقطاتٍ تُؤلِمُني...

أيُّ قَدرٍ سَيِّئٍ جَلَبَ لي الانتظارَ؟

ها هو وَجهُ سناء يُطارِدُني

في أركان غُرفَتي الأَربعة،

مُهانًا ولا يَنكَسِرُ،

بل –ويا للعَجَب– باستطاعَتِه السَّيرُ فوقَ المياه**

التي ظَهَرَت فجأةً في المكان

من كَثرَةِ الحُزنِ المصاحِبِ للبُكاء.

لو كُنتُ أَنهَيتُ رَسمَتي دفعةً واحِدَةً

لَصارَ العالَمُ أَقَلَّ قَتامَةً وظُلمَةً؛

فَالانتِظارُ هو الدُّودَة التي أَكَلَت حياتي،

وجَعَلتني أَتعذَّب بِوَجْهِ سناء وعَيناها مَعصوبتان

بِعَرَبَةِ التَّرحيلات،

ووَجهُها للحائِطِ في الحَبْسِ الانفراديِّ،

ومَعِدَتُها مُضرِبَةٌ عن الطَّعام

من أَجْلِ أَن يَكونَ مَنطقيًّا وواقِعيًّا

تَخَيُّلُ بُحيراتٍ وبَجَعٍ بَرِّيٍّ في نافِذَة سِجنٍ،

وبين الأَسوارِ العالِيَة،

بينما يَدَا سناء مَربوطَتان للخَلفِ بِحبلِ الله المتين

وتَعويذَةِ أَهْلِ الكَهف.

---

* جماعات ضغط صغيرة: جماعات تحدَّث عنها «إريك فروم»، باعتبارها حَلًّا ثَوريًّا في الأوضاع اللا ثورية.

** السَّيرُ فوق المياه: إشارة إلى جرافيتي رَسَمه عمار أبو بكر للسجينات: يارا سلام، سناء سيف، ماهينور المصري، إلى آخره... باسم «السائرات فوق المياه».



صَوتٌ خامِسٌ:

ها هو ذا صاحِبُ اللِّسانِ المقطوعِ

في مُؤتمرٍ للاشتراكيِّين يَجلِسُ في رُكنٍ مُنزَوٍ

كما اعتاد أن يَفعلَ في صالَةِ الحِزبِ

كأنَّه استقرَّ فَوقَ فُوَّهَة بُركانٍ

مُجسِّدًا بحركاته اللَّا إراديَّة

ذلك المعنى الزَّائِل الَّذي طالما أَرادَ أَنْ يُوجَدَ ولا يَكتبُ*.

أيُّ ناطِقٍ حَصيفٍ سَيلتَقِطُ أَلفاظَه المفقودَة،

وإشاراتِه المرتَعِشَةَ كَعصفورٍ مَحبوسٍ في قَفَصٍ

يَعملُ طُوالَ اللَّيلِ على الطُّرُق السَّريعَةِ،

سائِقًا لِعَرَبَةِ نَقلٍ يُسمِّيها العامَّةُ «تريلَّا»؛ لِرَدْمِ الحُفَر،

ولا يَهمُّه أَيُّ ثَمرَةٍ على الإطلاقِ

سِوى مَهْدِ الفراولَة البرية**،

أن تُقالَ أَجملُ أَمانيه التي يُسافِرُ من أَجلِها للَّجنَةِ

المركزيَّة،

ويدفع اشتراكَه السَّنويَّ...

أن تُقالَ بِلسانِ الغَيْرِ، ولو بالخطأِ، على هَيئَةِ شِبْهِ

جُملَة.

حُرِمَ من التَّصريحِ به بِسبَبِ الخَرَس،

وانتظارِ تَلبِيَةِ صَدَى الصَّوتِ، عائِدًا لاحتضانِ المنادي.

مَن مِنَّا سَيكونُ بمثابَةِ ميكرفون في مدينَةِ السِّمنَة

لِبروليتارِيٍّ انْتَظَمَ في عُضويَّةِ الحزبِ، ولَيسَ سَهلًا على

أُذُنَيْه

فَكُّ شَفرةِ المصطَلحاتِ المطَلْسَمَةِ التي يُلقيها أَعضاءُ

اللَّجنَةِ المركزيَّة؟

أيُّ قَدَرٍ أَلقى بِمُعاقٍ وَسطَ جَمعٍ من الأَصحَّاء

لا يُضاجِعون –مِثلُه– في «الويك إند» مَهْدَ الفراولَة

البرية

امرأته التي جَعَلَته يُؤمِنُ بِنَفسِه

ولِسانُه عاطِلٌ عن العَمَل

لِدرجَةِ أَنَّ شَفَتَيْه الصَّامِتَتَيْن دائِمًا وأبدًا

تَبوحانِ لها بِكلماتٍ طازَجَةٍ ودافِئَةٍ وغَيرِ مَنطوقَةٍ

بينما يُواصِلُ زَحْفَهُ المقدَّسَ

للإمساكِ بمِروَحَتِها بين أَسنانِه،

تَطوَّعَ أَحدُنا، وتَحديدًا ذَلِكَ الَّذي يَتباهى بِمعدَّلِ خَمسٍ

وعِشرين ساعَةً في اليَومِ

أنَّه على صِلَةٍ بِرَجُلٍ من نَسيجٍ

يُدعَى «هنري كوريل»

الَّذي لم يَسْمَعْ به من قَبلُ

صاحِبُنا ذو اللِّسانِ المقطوعِ،

ثمَّ اعْتدَلَ المتحدِّثُ باسْمِه

شامخًا مِثلَ رايَةٍ خَفَّاقَةٍ في الصُّفوفِ الأماميَّةِ،

وأَخَذَ يُردِّدُ كالحمار الذي يَحمِلُ أَسفارًا:

مَهْد الفراولة البرية..

مهد الفراولة البرية..

مهد الفراولة البرية...

أيُّ رابِطٍ بين الصِّدقِ الفَنِّيِّ والصَّوت المستعار الكَذوب

هَيَّأ صاحِبَنا ذا اللسانِ المقطوعِ فَوقَ مِقعَدِه

ثمَّ انْطلَقَت مِن رُكنٍ مُنزَوٍ

الحمَمُ من فوَّهةِ بُركانِ

الَّتي رافَقَته في مَساءٍ حامِضٍ

وأَكَلَت نارُها التي لا تتوقَّفُ عن الاشتعالِ

الَّذي تَطوَّعَ، ويَدَّعي أنَّه على صِلَةٍ بِرَجُلٍ من نَسيجٍ...

مَقاعِدُ الحِزبِ..

اللَّجنَةُ المركَزيَّة..

بَريدُ المراسَلاتِ بين الأَعضاءِ..

لافِتَةٌ بِخَطٍّ عَربيٍّ أَنيقٍ مَكتوبٌ عليها «المجدُ

للشُّهدَاء»..

خَشَبُ البابِ الذي يَفصِلُ بين الواقِعِ والأَحلام،

وفَمٌ يُتَمتِمُ كالمتديِّنين:

لَقَد جَرى المساسُ بِعَصَبٍ حَيٍّ...

---

* ما لا يوجد لا يُكتَب أبدًا: معكوس مَقولَةٍ للأستاذة الفاضِلَة نوال السعداوي، نُشِرَت في أعمدة الرأي بجريدة الأهرام.

** مهد الفراولة البرية: مهد البدايات وكما ورد في النص.. امرأته التي جعلته يؤمن بنفسه ولسانه عاطل عن العمل، وإشارة أيضا إلى فيلم برجمان الفراولة البرية الذي استوحاه من ذكرى منزل جدته القديم الفارغ كمحاولة لاستعادة مسن لذكريات الطفولة بمجرد أن يفتح الباب فيجدها واقفة، أي جدته، لتحضير وجبة طعام.

*****



صَوتٌ سادِسٌ:

اسْتيقَظَ مُشعِلُ الحَرائِقِ

في أيَّام السِّلمِ والحَرب

وأَعدَّ نَفسَه لِتدخينِ سيجارَةٍ

قَبلَ أن تُلامِسَ قَدَما العالَمِ الافتراضيِّ قَدَمَيْه الكبيرَتَيْن.

لن تَستطيعَ من مَسافَةٍ قَريبةٍ

أَن تَتعرَّفَ إليه؛

فَهو لا يزال حائِرًا في مَوقِعِه كَأنَّه لَقيطٌ في غُرفَةِ الزَّمَن.

إذًا.. لا جَدْوى من التَّعجُّبِ

لِحَلِّ لُغزِ مَن أَنتَ بالنِّسبَةِ إليه.

كَم من مَرَّةٍ صاحَ في مرآةِ «ڤينوس»

ليس لي صَديقٌ وعائِلَةٌ سِوى قنابِلِ الغازِ

وطَلقاتِ الخَرطوشِ، ويَدَيْن غَشيمَتَيْن تُلقِيانِ المولوتوف

فوقَ عَرباتِ الشُّرطَةِ ودَوريَّاتِ الثَّورَةِ المضادَّة...

استيقظَ مُشعِلُ الحرائِقِ

مُهانًا ومُفلِسًا من مَعنًى الْتَقَطَهُ عن الشَّقاءِ بالأَمَلِ

بِجانِبِ تِمثالِ عمر مكرم، وبين أَطبَّاء التَّخديرِ.

أيُّ ضَجَرٍ وقَتامَةٍ حَوَّلاه من لا شَيءَ إلى بَطلٍ شُجاعٍ

يَقودُ مَجموعَةً

في شارعٍ جانِبيٍّ بصيغَةِ الأَقَلِّ شَأنًا

كَي يَصِلَ بِهِم إلى قيمَةِ التَّضحِيَةِ من أَجلِ الوَطَن...

لا تُصدِّق أَنَّ سيد زكريا* اختفى؛

فَمصادِرُ الجَمالِ الَّتي لها طَعمٌ ولَونٌ ورائِحَةٌ

باقِيَةٌ؛ لِنُدرَتِها،

على الأَرجَحِ غاب، ورَضِي بِعالَمِه الافتراضيِّ

غَيرِ الدَّالِّ على مَعكوسِ صُورَتِه في مِرآة «ڤينوس»...

إلى أَيِّ طَريقٍ سَتقودُكَ حَواسُّكَ لِتراهُ بِقَلبِكَ

مُعلِّمِنا الفَوضويِّ الَّذي تَقاعَدَ نِكايَةً بِمُتضَخِّمي

الوجدانِ،

الَّذين يُزورونَه في الفَجرِ،

ويَغسِلون الصِّدقَ الفَنِّيَّ

بالأَرضِ الخَرِبَةِ الَّتي تَحتَ قَدمَيْه،

وضَميرِهِ المغسولِ، الَّذي انتقلَ من جَدِّه لأبيه،

ومن أَبيه إلى جلساتِ المساءِ والسَّهرة

بلا أَداةٍ لِلقَتْلِ

حَتَّى مُلِئَت بَدائِلُه الأَقلُّ من الصِّفر

بِفضيلَةِ الاسْتِغناءِ، وحُبِّ الثَّورات.

---

* سيد زكريا: بطل حرب الاستنزاف ومُشعِل الحرائق.

*****



صَوتٌ سابعٌ:

وُلدتُ في الفَضاءِ الإلكترونيِّ،

كامرأةِ ظِلٍّ تُلتَقطُ لها الصُّورُ في الميادينِ والحدائِقِ

العامَّةِ،

وفَوقَ أَريكَةٍ تُضاءُ بِلمباتِ النِّيون الصَّغيرَةِ الملوَّنة،

بِبساطَةٍ، وبِكُلِّ وضوحٍ: أنا ابْنَةُ عَدَسةِ الكاميرا

الَّتي تَمَنَّت أَن تكونَ «لي ميلر» وهي مُهيَّأةٌ للقَنْصِ

بِعَيْنَيْ رَجلٍ خَلَّدها عارِيةً...

أيُّ زَيفٍ أحاطَ بِقِيَمِ العالَمِ الجديدِ عن تَرويجي وبَيْعي

وشِرائي

ووجودي في مَزادِ التَّرهُّلِ بين أَفواهِ الرِّيفيِّين السُّذَّجِ ذَوي

المكْرِ السِّيِّئِ

الَّذين لا يعرفون شيئًا عن الخَلاصِ سِوى بِشاشَةِ

التِّليفزيون،

وهي تُناهِضُ مآثِرَ المدُنِ وأَفضالِها لِلبَقاءِ على قَيْدِ

التَّرَدُّدِ.

نَعَم، التَّرَدُّدُ يا أَصدقائي وصديقاتي اللَّيليِّين،

هو ذاته الزَّمنُ الَّذي جَعَل منِّي مَعنًى مُضادًّا للزَّوال...

قَد أَذبُلُ وأَموتُ واهِنَةً، وتَضرِبُ الشَّيخوخَةُ أَنحاءَ

جَسَدي

وهُم يُمْسِكُون بِقَدَمَيَّ المتَجلِّطَتَيْن ويَجرُّونني مِنهُما

كَأنَّني عَربَةُ كارُّو تَفوحُ منها رائِحةُ الرَّوَثِ والقاذورات

المنبَعِثَةُ من أُنوفِ الجُنودِ والميليشيات المسلحة

ولا عَلاقَةَ لِقامتي المتكَوِّرَةِ مثل بَيضَةٍ في وعاءٍ على

وَشكِ الوصولِ لِدرجَةِ الغَلَيانِ

بِأوهامِهِم عَنِّي وعَن مَروَحَتي المفقودَةِ كامْرَأةٍ مَخصيَّةٍ

تُقاوِمُ بِشَرَفٍ نادِرٍ وبِلا ثَمنٍ عِصِيَّهم الكَهربائيَّة الَّتي

صُنِعَت لإبادَةِ الضَّجَر

ونَقلِ لَقَطاتي من مَيدانٍ مُزدَحِمٍ بالمسافِرين

إلى قَبْوِ الأثرياءِ الجُدُدِ مُحاطَةً بِالمقصَّات الَّتي صادَفَتني

في مَرحلةِ الطُّفولَةِ والبراءَةِ

لإخفاءِ قَدميَّ، فَخِذيَّ، مَروَحَتي، وَردتي السوداءِ (التي

تُشبِهُ الدَّانتيلَّا أَسفلَ سُرَّتي)*،

نَهدَيَّ، إبِطيَّ، ذراعَيَّ، عُنُقي الجميلِ (الشَّبيهِ بِجسرٍ بين

كَفَّيَّ)، وُمداعَبَةِ عازِفِ الكَمانِ

لِتفاصيلِ وِجهي...

وَحدي مَشيتُ آلافَ الأَميالِ، ورَسَمتُ خارطَةً جَديدةً

لأُحرِّرَها من الرَّصاصِ الحَيِّ ورَفْعِ السِّلاحِ.

وَحدي مَشيتُ آلافَ الأَميالِ، وحُوصِرتُ بالمدَرَّعاتِ

وسائِقيها والإسلاميين الأَجلافِ؛ لأَهْتِفَ: «سِلميَّة..

سِلميَّة.. سِلميَّة»

وَحدي مَشيتُ آلافَ الأَميالِ، وكُنتُ جائِعَةً،

وعَطْشَى؛ لأُثْبِتَ لِنفسي أنَّ التَّباهي بِثَمَرتي النَّاضِجَةِ

وَعْدُ الله.

وَحدي مَشيتُ آلافَ الأَميالِ، وتَعاقَبَ تَحتَ سَماواتي

لَيلٌ ونَهارٌ؛ لأَعتَرِفَ لَكم أَنَّني عاجِزَةٌ عن

اللَّحاقِ

بِموكِبِ الحَداثيِّين؛ لأنَّني ابْنَةٌ تَقليديَّةٌ تَحتَ شَجرةِ مريم

العذراء

أَتَمنَّى لِشَجَرتي أَلَّا تَنتَظِرَ أَمرًا سَماويًّا، وتُمطِرَني من تَلقاءِ

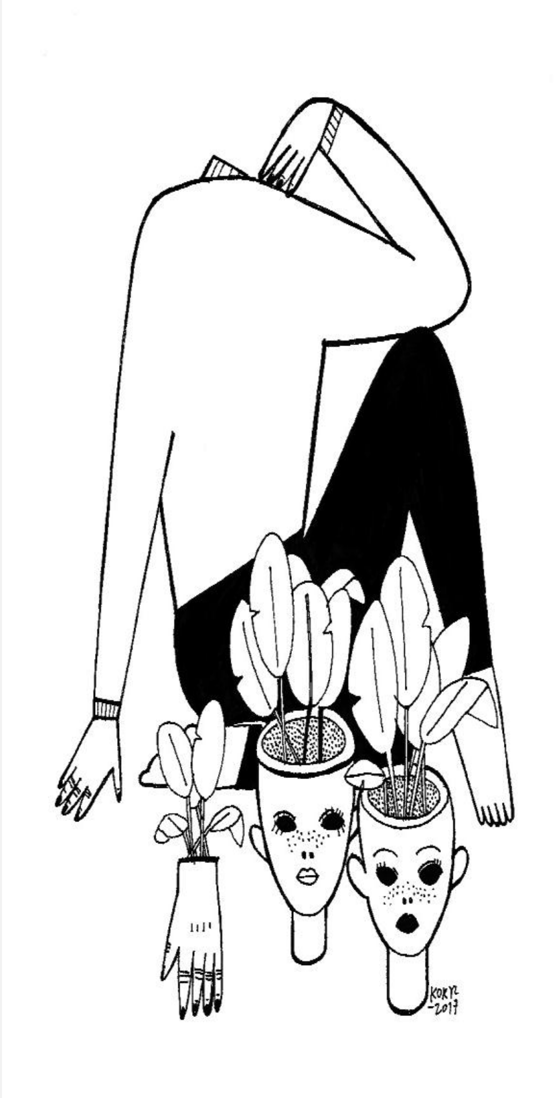
نَفسِها؛

لِكَوْني ابنَةً وَحيدَةً لأَبٍ مُناصِرٍ لحقوقِ النِّساءِ، وخَصَّني

بِلَقَب «ميمي».

---

* وردتي السوداء التي تشبه الدانتيلا: اقتباس من أمجد ناصر.


KOKYL
-2017

صَوتٌ ثامِنٌ:

انْقطَعتُ عن ارتيادِ الباراتِ؛

فَلَم أَعُدْ أَرى سيميوطيقايَ العَجيبَةَ قادِمَةً نَحوي.

انقطَعتُ عن قراءَةِ قَصائِدِ التِّسعينيِّين؛

فَأصبَحَ قَلبي فارِغًا أَمامَ المايك في قاعَة «باردو»

بالمعادي*

انقطَعتُ عن إلقاءِ العُملاتِ الفضِّيَّةِ في مياهِ النَّهرِ؛

فَخاصَمَت قَدمايَ كُوبري قصر النيل.

انقطعتُ عن مُلاقاةِ أَصدقائي في أَربعاءِ الرَّمادِ؛

فَتَعفَّنَت جُثَّةُ شاعِرٍ مُغتَرِبٍ في شَقَّتِه، وحيدًا، تَعيسًا

بالقارَّةِ الأوروبيَّةِ.

انقطعتُ عن الذَّهابِ للسِّينما ورُؤيَةِ أَفلام «لويس

بونويل»؛

فَأدمَنتُ الجُلوسَ بالسَّاعاتِ لِلفُرجَةِ على «اليوتيوب»

ومواقع «البورنو والدعارة الإلكترونية».

انقطعتُ عن الحُلمِ بِرَغبَتي الأَكيدَةِ أَنْ أَصيرَ مُصوِّرَ

Nude؛

فَهجرتُ المدينةَ الَّتي أَحْبَبتُها لِأَكُفَّ عن مُراقَبَةِ الجمالِ

الحَقيقيِّ بَين العُشَّاقِ العِظامِ.

انقطعتُ عن تَقديسِ شَييء؛ فَنسيتُه كَخُرطومٍ صَغيرٍ

على سَلالِمِ العَمائِرِ الشَّاهِقَةِ،

وكانَ لِسُقوطي على الأَرضِ إيقاعُ لَحْنٍ هادِئٍ وحزينٍ

لِسيمفونيَّة «العَرَّاب» في دار الأوبرا القديمة...

انقطعتُ عن التَّردُّدِ على حَيِّ التوفيقيَّة والجلوسِ في مَمَرٍّ

بجانِبِ «جراند أوتيل» ومَمَرِّ «كباريه شهرازد»؛

فَقَلَّت أَوْهامي عَن الانْتظارِ، وصِرتُ واقِعِيًّا قَذِرًا، مُمتَلِئًا

بالكراهِيَةِ.

انْقَطَعتُ عن مُواصَلَةِ السَّيرِ بَين الدُّقِّي وشارِع ميشيل

باخوم؛

فانْطفَأَت ثَلاثُ شَمعاتٍ بين ضُلوعي على طَريقَةِ

الشُّعراءِ الغِنائيِّين:

الأُولى: لأنَّكِ غائِبَةٌ، والثانية: لأنَّكِ غَبِيَّةٌ، والثَّالِثَةُ:

لأنَّني لا شَريكَ لي

في عُلبَةِ ذِكرياتِكِ البائِسَةِ...

انقطعتُ عن نَزْعِ أَقْنِعَتي وأَنا أُخاطِبُكِ بِأَدبٍ جَمٍّ،

وعَيناايَ تَتَخيَّلانِ الشِّقَّ الَّذي بين وَرْدَتَيْ نَهْدَيْكِ؛

فَتَناسَيتُ الاتِّصالَ بِكِ؛ فَقَط لِفَشَلي بِأَلَّا أَكونَ عادِلًا

أَمامَ عَطفِكِ.

انقطعتُ عن الاسْتِسلامِ لِحضورِكِ الَّذي كاد ذاتَ مَرَّةٍ

أَن يَبتَلِعَني بِداخِلِ جَوفِكِ المترهِّلِ،

فتضخَّمَت مُعاناةُ الحَذَرِ من الموتِ فَجأَةً بِسَبَبِ ضيقِ

التَّنَفُّس بين فَضلاتِ أَكوابٍ من الشَّاي

بالحليبِ؛ فَخَلَقَ الرَّأسماليُّون وتُجَّارُ السِّلاحِ جُرثومَةً دَالَّةً

على اقترابِ القِيامَةِ والكَسادِ الكَبيرِ،

وَمجموعِ أَيَّامي مَع مَشروبِكِ المفضَّلِ في «ستوريل».

انقطعتُ عن التَّذكُّرِ والنِّسيان؛ لأَغضبَ كَمُراهِقٍ حينَ

أَراكِ جالِسَةً على كَنبَةٍ عريضَةٍ،

وعَيناكِ تَدُلَّانني بِكلِّ بَساطَةٍ على بابِ الخُروجِ؛

فَتَقِلَّ أَهميَّةُ يَدَيْكِ بالنِّسبَةِ لي عندما أَتلفَّتُ حَولي

وأُسْرِعَ الخُطى إلى مَيدانِ طلعت حرب

مُتسلِّلًا كأنَّني خارِجٌ من مُعسكَرِ الأعداءِ...

انقطعتُ عن الأَسبابِ؛ فَصِرتُ أكتُبُ خِطاباتٍ

لِنفسي عن النَّتائِجِ؛

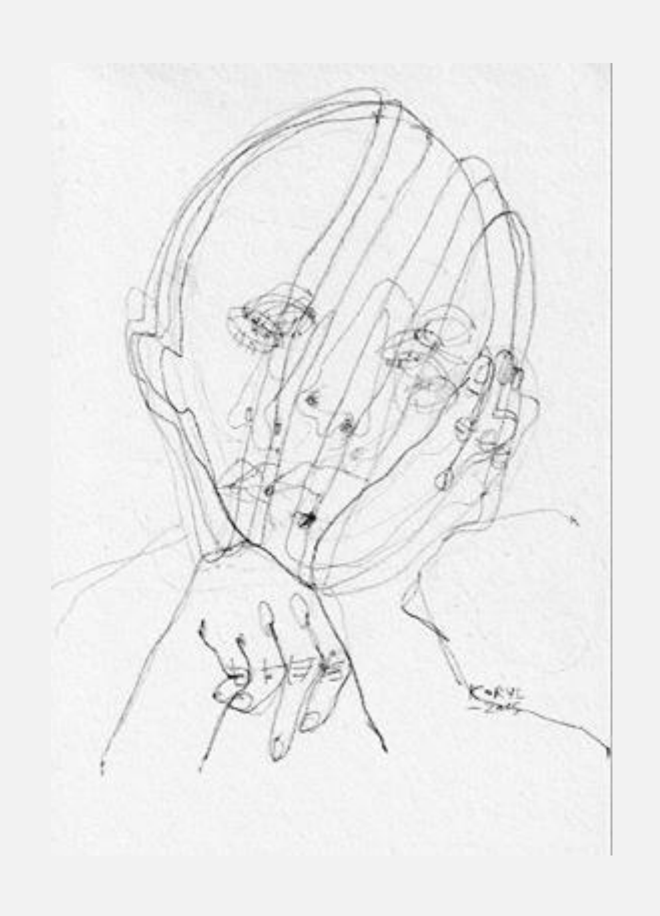
فَزادَت خُطَطي المؤجَّلَةُ لِمَحْوِكِ بَين سُطوري، أَيَّتُها

الحبيبَةُ الغالِيَة...

---

* قاعة «باردو» بالمعادي: مُلتقًى مفتوحٌ للهُواة للتعبير عن أنفسهم أمام الميكروفون.

*****



صَوتٌ تاسِعٌ:

أَتذكَّرُ أَنَّني لم أَخَفْ يومًا

من دُخولِ بَيتِ الأَشباحِ،

سواءً كنتُ سائِرًا على قَدميَّ،

أَمْ مَخطوفًا في مُظاهَرَةٍ سِلميَّةٍ بِوسطِ المدينَةِ؛

لا لِشَيءٍ إلَّا لإيماني المطلَقِ أَنَّني أُحِبُّ هذه البلادَ،

وأَحْتَرِمَ غَضبي الَّذي يَسْحِرُها ويُحوِّلُها إلى مِرآةٍ...

تَخيَّلْ بَلدًا كامِلًا تَمتلِئُ به عَيناكَ،

وأَنتَ تُلقي نَظرَةً أَخيرةً على هِندامِكَ ووَجهِكَ

للهُروبِ من سِجنٍ في غُرفَةٍ

إلى غُرفَةٍ في كافيه «مودرن»

استعدادًا لِخَلْقِ مَزجٍ بين الواشي والموشَى به،

على إيقاعِ مُفردَةٍ في مُتحَفِ اللَّيل...

هي سيميوطيقايَ العَجيبَةُ

أنا وهي

معًا في التِحامِ أُورجازم

لِنَصعدَ السَّلالِمَ الإلكترونيَّة،

ونَصِلَ بِنظرَةٍ واحِدَةٍ كالواثِقِ المطمئِنِّ

إلى غُرفَةِ المحقِّقِ...

ربَّما تَوَّهمتُ –كعادَتي– طولَ مُدَّةِ الانتظارِ،

كالَّذي نَسِيَ لِوهلَةٍ لِمَ جاءَ إلى هُنا، وما التُّهمَةُ

الموجَّهَةُ إليه،

وفي لَحظةِ إشراقٍ مَشي باتِّجاه البابِ،

وبَدَأَ يَشعرُ أَنَّه ذَهَبَ لِبيتِ الأَشباحِ

للتَّعرُّفِ إلى صَوتٍ يَعرفُ عنه شيئًا حَقيقيًّا،

بَدلًا من هذا الهُراءِ الَّذي يَعتَقِدُه الجَميعُ

في بَيتِ الوالِدَيْن عَنِّي كَرَجُلٍ مَخبولٍ

يَتكلَّم ويُمارِسُ حياتَهُ بِبَساطَةِ

مَن يُسمِّي الأَشياءَ بأَسمائِها،

وإِنْ كَذِبَ فما هو إلَّا شاعِرُ نَثْرٍ،

لا يَعرِفُ وَزنًا ولا قافِيَةً ولا قِبلَةً للصَّلاة،

ويَصُدُّ الأَذَى عن نَفْسِه

بِفَضيلَةِ الصَّبْرِ والكِتمانِ...

أيُّ ثَباتٍ أَصابَ شَجاعَتي وغَلَّفها بِحماقاتِ فَترَةِ

الشَّبابِ والأَسئِلَةِ الوجوديَّةِ!

وأنا أُفكِّر بِسيميوطيقايَ العَجيبَةِ

هَلَّت إشاراتُ الضَّبابِ في الطُّرقَةِ الطَّويلَةِ

وغَطَّت عَينيَّ

بِصورَةِ ابنَةِ الضَّابِطِ الَّتي أَحْبَبْتُها، وهَجَرَتني،

مُلوِّحَةً بِكفَّيْها الصَّغيرتَيْن أَنْ اطمئِنْ؛

على سَبيلِ التَّرجَمَةِ وفَكِّ الشَّفَراتِ،

كَأنَّ ابتسامَتَها الطَّيِّبَة المبارَكَةَ

انْطبعَت على وَجهِ المحقِّقِ

وهو يَسأَلُني بِحَزْمٍ في تَفصيلَةٍ

لم أَكُن على عِلْمٍ بها من قَبْلُ؛

فَأرُدَّ: يا فندم

لا أَعرِفُ لحَنًا لِتلكَ الوقائِعِ الَّتي لم تُولَدْ بَعْدُ،

تَعرِفونني جميعًا؛

فَيُفتَرَض بِكُم –وبالعامِلين في مَبناكُم الَّذي من

طابِقَيْن–

أن تَكونوا –دونَ أَيِّ مَدعاةٍ للشَّكِّ– عائِلَتي الملِمَّةَ –

قَدْرَ الإمكانِ–

بِمسيرَةِ حَياتي...

هَكذا تَقولُ الدَّفاتِرُ في مَراكِزِ الشُّرطَةِ،

وفي سِجِلَّاتِ مَكاتِبِ الصِّحَّةِ والسُّكَّان

أَحداثٌ وتَواريخُ عَنِّي

لا يَعرِفُها أَحَدٌ هُنا في مَسقَطِ رَأسي.

رُبَّما أَنا أَقرَبُ لِتصديقِ ذَلِكَ؛

فأنا لا أَشْعُرُ بالغُرْبَةِ

ونحنُ نَتبادَلُ الكَلامَ الَّذي قَد يُهدِّدُ بِبقائي مُستَقِرًّا
على الحافَّةِ،
وبِنفسِ الدَّرَجَةِ: باختلالِ تَوازُني
من أَجلِ السُّقوطِ...
أنا غَريبٌ هُنا، ووافِدٌ جَديدٌ
عزيزي المحقِّقَ؛
فَقُمْ بِعَمَلِكَ،
ولا تَجْعَلْ إخْوَتي ومَعارِفي في حارَةِ الصَّاري
يَتحدَّثوا بِلِساني...
أَصدُقُكَ القَوْلَ:
مَرَّت تِسعَةٌ وعِشرون عامًا
للإقامَةِ خارِجَ هَذِهِ البُقعَةِ العامِرَةِ بِأعمِدَةِ الكَهرباءِ،
ولِلعِلْمِ: قَلَّما تَسامَرَ أَحدٌ مِنهم حَولي، أو حَوْلَ شُؤوني
التَّافِهَةِ الصَّغيرَةِ؛
هُم يَعتَقِدون أنَّني –مِثلهم– مَشغولٌ بالنُّقودِ، والزَّوجَةِ،
والأَولادِ،

ولَكِنْ مَهما قُلتُ لَهُم وحَلَفتُ بأَغلَظِ الأَيمانِ
لن يُصدِّقوا أَنَّ مُعضِلَتي
ناجِمَةٌ عن تِلكَ البِئْرِ الجافَّةِ بين ضُلوعي،
وباستِمرارِ حيرتي بين قَريةٍ واحِدةٍ ومُدُنٍ عَديدَةٍ
يُؤَكَلُّ التَّمنِّي بانفجارِ نَبْعِ مياهٍ
لأُؤمِنَ بِمعجزاتِ رَجُلٍ مُفلِسٍ وعاطِلٍ عن العَمَل،
وَأَظلُّ مُنشَغِلًا بما فَشلتُ في تَحقيقِه،
حارِسًا لِضَعْفي أَمامَ العَطشِ وأَدعِيَةِ أُمِّي؛
لِيتماثَلَ الارتواءُ الكاذِبُ بالثَّرثَرَةِ مثل العامَّةِ
عن «عيش.. حرِّيَّة.. عَدالة اجتماعية».
السِّياسَة شغلة «التَّفه»* يا فندم
أمَّا أنا فَمُجرَّدُ بائعٍ للأَلفاظِ،
الأَلفاظُ هي أَداتي الهَشَّةُ،
التي تُمحَى وتَزولُ مِثلَ ابتسامَةِ ابنةِ الضَّابِطِ
وهي تَختَفي من وَراءِ مَكتَبِكَ المجهَّزِ بِديكورٍ بَسيطٍ
لأظَلَّ مُؤمِنًا بِوَطَني
في سوقٍ للنَّخاسَةِ وجَهلٍ للعَبيدِ بِأيِّ خُلدٍ نازَعَتني

إليه نَفْسي

لو شُغِلتُ عَنْهُ...

ولا يَشْغَلُ حَيِّزَ فُضولي

لماذا استَدعَيتُموني وطَلَبتُم حُضوري

إلى مَبناكُم...

هل صارَت التِّجارَةُ بالأَلفاظِ وَصفِّها بين دفَّتَيْ كتابٍ

جَريمَةً يُعاقِبُ عَليها القانونُ؟

هل أنا مُتَّهَمٌ يا عزيزي المحقِّق،

وسَتنطَلِقُ الأَلفاظُ من بين دفَّتَيْ «ليلة ٣٠ فبراير»

لإشعالِ حَربٍ بَينَ الذَّاتِ والعالَمِ

في حَيِّزِ مُخيِّلَتي

كَما أَخبرتُكَ بِحُسنِ نِيَّةٍ واحترامٍ

عن ماذا أَكتبُ

وأنا في سِنِّ الرَّابِعَةِ والعشرين؟

---

* السياسة شُغلة التَّفَه: ذكرها الفنان حسين بيكار في لقاء مع الأستاذ مفيد فوزي، بعد تَبرُّعه بجائزة مبارك لمستشفى سرطان الأطفال.



صَوتٌ عاشِرٌ:

شاهدتُ فيلمًا وَثائِقيًّا

عن العادَةِ السِّرِّيَّة...

وَقَفَ أَبطالُهُ الخَمسَةُ:

امرأتان وثَلاثَةُ رِجالٍ،

فُرادَى، في غُرَفِ فُندقِ «الوَردَةِ الذَّابِلَة»،

كان ثَمَّةَ خَبَرٌ على شَريطِ الأَخبارِ

في التليفزيون، عن اغتيالِ السَّادات بالرَّصاصِ الحَيِ،

وهُم يَجرُّون حقَائِبَهم المصنوعَةَ من القُماشِ

في الطُّرقَةِ الطَّويلَةِ

بين الصَّالَةِ، وقبل الوُصولِ إلى بابِ الأسانسير.

لا أَزالُ مُتابِعًا لأَجسادِهِم

وهي تَتَدحرَجُ في حُفرَةِ الوحدَةِ...

سَقَطَت المرأتانِ أوَّلًا،

تَبدو إحداهما شاحِبَةً وحَزينَةً،

بَينَما الأُخرى اعتادَت على مُواجَهَةِ العالَمِ

بِقناعِ الاسْتِغناءِ عن رَفيقٍ،

صاحَ رَجُلٌ من الثَّلاثَةِ

والشَّاشَةُ أَمامي مُقسَّمَةٌ،

كَأنَّهم جميعًا واقِفون فَوقَ خَشبَةِ مَسرحٍ:

وَجدتُ مُونولوجي، بَينَما كان العالَمُ ساكِتًا،

وأَبحثُ عن وَسيلَةٍ للسُّقوطِ لأَتَخَلَّصَ من الضَّجيجِ،

والصَّلَفِ بداخلي...

تَسكُنُني العَفاريتُ كَما قالَت جَدَّتي.

أَيُّ مَشهَدٍ لِهذِه الطُّيورِ الَّتي في الأقفاصِ

سَيجعلُ عَينيَّ لا تُفارِقان خَيطًا وإبرَةً

بين الأَصابِعِ...

تَثاءَبَ الرَّجُلان اللَّذانِ انْشَغَلا بمُواصَلَةِ الخَبْطِ

بِأقدامِهِما على الأَرْض،

كأنَّهما صانِعَا موسيقى تصويريَّةٍ بلا آلاتٍ

لِهذِه الأَجواءِ الليليَّةِ...

في تَوقيتِ ذُروَةِ الفيلمِ،

وخَمْسَتُهم شِبهُ نائِمين؛

هُنا بَدَأت الحكايَةُ الميلودراميَّةُ،

بإعادَةِ تَشغيلِ لَقطاتٍ عن طُفولَتِهم

في أَزمِنَةٍ بَعيدَةٍ؛

ممَّا دَفَعَ المرأةَ ذاتَ الثَّديَيْن

أن تقولَ لَفظًا بذيئًا من هَوْلِ ما رَأَت

كَأنَّه حَدَثَ بالأَمسِ،

ورَدَّدَت ذاتُ الخَصْرِ:

لَيسَ مُمكِنًا أن يكونَ ذلك واقِعيًّا!

والرِّجالُ –كَعادَتِهم

فِي حالِ كَشْفِ ماضيهِم السِّرِّيِّ–

لا يَنْبِسون بِبِنت شَفَةٍ،

وتَظَلُّ أَفواهُهُم مَفتوحَةً عن آخِرِها،

كَأنَّهم صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ لا يَفقَهون شيئًا.

مرَّت لحظاتٌ صامِتةٌ

فَلا حَرَكَةً على الشَّاشَةِ للأَجسادِ،

ولا صوتًا مُصاحِبًا حتَّى مِمَّن عُرِفوا بالرُّواةِ التَّقليديِّين،

صاروا فَجأةً تَماثيلَ للكَذِبِ في بُحيرَةٍ راكِدَةٍ،

أو مِثلَ تِلكَ المانيكاناتِ التي أراها خَلفَ زُجاجِ

مَحلَّات الملابِسِ

في وَسط المدينةِ

بالرَّغم من أنَّ التِّترَ مَكتوبٌ على بابِه:

«صُنِعَ في بِلادِ اللَّاجِئين»

ولَكِنَّ مُخيِّلَتي المسكينَةَ ظَلَّت تُشوِّشُ

على مَسارِ الأَحداثِ

بِتَبسيطِ لَقطَةٍ قاتِلَةٍ،

وتَهويلِ لَقطَةٍ عادِيَّةٍ؛

تَجَنُّبًا للأَلَمِ ومُقاوَمَةَ أَنْ تَدْمَعَ عَيناي...

ها هُم يَبدؤون في الهروبِ من تِلكَ السَّاحَةِ

الكَبيرَةِ التي تَلتَقِطُها عَدسَةُ الكاميرا

بِداخِلِ زَمَنِ الفيلمِ،

وَيَتوارون بين البِناياتِ في اختفاءٍ تامٍّ من الكادْر.

بَعدَ فَترةِ إظلامٍ مُتواصِلٍ،

بَدَأَ الجُنودُ بِزِيِّهم المَمَوَّهِ وخوذاتِهم النَّائِمَة فوقَ رُؤوسِهم

كصراصيرِ

اللَّيلِ المضيئَةِ

يَأكلون المشهَدَ، وقُوَّتُهم البادِيَةُ لِعُيونِنا تُلقي على

الجَميعِ

الخوفَ والذُّعْرَ والارتعاشَ،

وتَهتزُّ تِلكَ السَّاقُ الملتَوِيَةُ لِزهرةِ عَبَّاد الشمس

وهي تَتمدَّدُ تلقائيًّا بِخيالِ صانِعيها الأَبرارِ،

من نُقطَةٍ إلى نُقطةٍ،

فَما كانَ من الجُنودِ والميليشيات المسلحة

إلّا إطلاق الرَّصاص الحيِّ

في الهواء

وفي كُلِّ اتجاهٍ

*****



صَوتٌ حادي عَشَر:

كُنَّا في مرحلة الإقامة أمام التِّلفاز

والزَّعيمُ يَخْطُبُ*

عن حتميَّة الخُبزِ في الأفران الآليَّة

وبودِّنا أن نَسبَّ أصوات ناخبيه

سنخسر لَذَّةَ الدَّهشَةِ الَّتي كُنَّا نخرج بها من الحُفَرِ والشُّقوق

إلى غُرفِ المعيشَةِ لالتقاط قليلٍ من الطِّشْت الذي تَخَمَّر دَقيقُه الأَبيضُ

في الظَّلام نَسرِقُ أَشْهى أَطْعِمَتِنا: العَجين.

سنخسر مَودَّةَ الموائِدِ ونحن مُتزاحِمون في حَلقاتٍ شَبيهَةٍ بحلقاتِ الذِّكْرِ

ابتهاجًا بالشَّبَع المصاحِبِ للانْتِهاء من القَضْمِ..

أيُّ جَيشٍ لن يَقْبَلَ بنا بين صفوفِه للإطاحَةِ بالزَّعيمِ الَّذي ضَرَبَنا في مَقْتَلٍ؛

فما نَحنُ إلَّا فِئران تابعون لمحبَّة الخَلْقِ

بين أَجْولَةِ الدَّقيقِ والمياهِ العَذْبَة

لتلك العَجينَةِ؛ ابْنَةِ التَّخمير، وصَبْرِ الأُمَّهاتِ ذواتِ

الأَجسادِ

المطابِقَةِ لجِذْعِ شَجَرةٍ،

وأَفواهُهنَّ الطَّيِّبةُ تنبعثُ منها رَوائِحُ الطَّمي...

---

* الملك الجديد، الزعيم يخطب.. التركيبان الوصفيان في مدخل مفردة في متحف الليل وفي خاتمتها: إشارة إلى تنصيب محمد مرسي في ميدان التحرير حاكما للبلاد، وما بينهما من وقائع وأحداث.



نأسى على حالِنا

ونحن مُلتَحِقون بِفريقِ المشاةِ العسكريِّين

نَرتَدي خُوذاتِنا، وأَعْيُنُنا لا ترى من عَدَسةِ البَنادِقِ

وفي امتداد الطُّرق التي ظَنَنَّاها لملاقاةِ لُغَةٍ جَديدَةٍ

إلَّا جُثَثَ ضحايانا

هل هذه هي الحياةُ التي غادَرنا بُطونَ الفَأراتِ

المسكيناتِ

لأَجْلِها؟

أيُّ عَدَمٍ مُلِئَت به تِلْكَ الحبيبَةُ، ومَوْطِنُ أَفْراحِنا:

مِصْرُ الجَديدَة...

ما الَّذي نَهَشَ رُكْبَتَيْها حتى صارتا عاجِزَتَيْن عن الحَرَكَةِ

مِن أَوكارِ الرَّذيلَةِ والفُجورِ السِّياسيِّ

أَيُّ فِئرانٍ ضِعافٍ نَحْنُ، وعَضَلاتُنا مَفرودَةٌ فَوقَ وُجوهٍ

لا تتوقَّع مِنَّا إلَّا سَفْكَ الدِّماءِ

بمجرَّد أن يكونَ دويُّ الطَّلَقاتِ مُعاشًا

وتَتَطايَرَ أَشلاءُ الجُثَثِ في الهَواءِ،

بَعضُنا مُرْتَبِكٌ؛ لأَنَّه صار قاتِلًا،

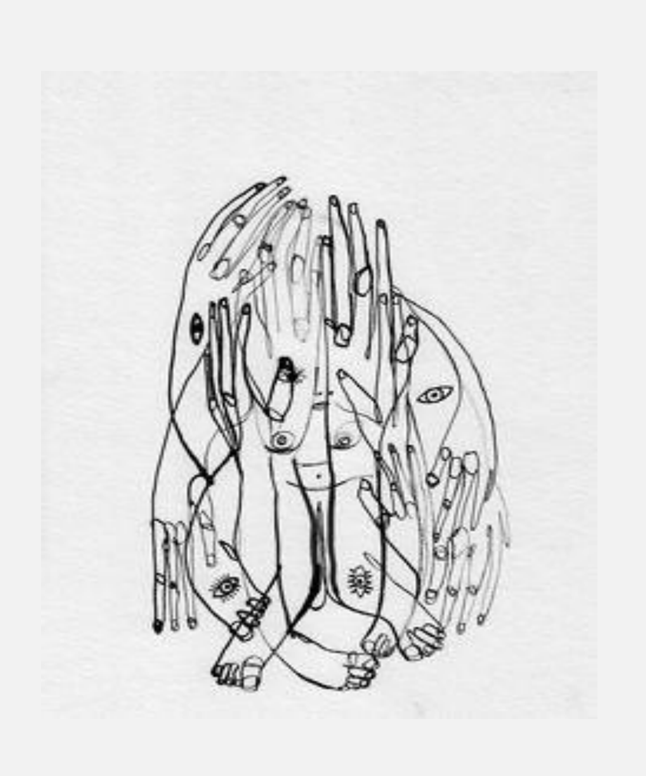
والبَعضُ الآخَرُ بِسُرعَةِ البَرْقِ يَلْتَهِمُ...

ها نَحنُ أَخَذنا دَوْرَنا، وصِرْنَا في نهايَةِ الرِّحلَة،

مُجَرَّدُ ضِباعٍ شَبيهَةٍ بِضِباعٍ كَمْ مَقَتْنَاها في مَرْحَلَةِ الإقامَةِ

أَمامَ التِّليفزيون

والزَّعيمُ يَخْطُبُ.



شُكرٌ وتَقديرٌ



- للفنانة البولندية كارولينا كوريل وشريكتي برسوماتها البسيطة في تجربتين انتهيت منهما في ٢٠٢٠ عام العزلة والوباء، وإحداهما وردة التخييل الذاتي.. مَشاهِدُ طَويلَةٌ بين أَرْبَعةِ جُدران.

- لكل من دعمني برأيه في تجربة مقهى صغير لأرامل مارکس ٢٠١٥، فلا يقل حماسي للمواصلة في كتابة الأشعار إلا بتلك الأقلية الهائلة، فالشكر: للناشر: حسني سليمان، وللأستاذة: سلمى أمين حداد، وللشعراء: مصطفى عبادة، محمود قرني، علي عطا، كريم عبد السلام، مسعود شومان، محمود خيرالله، فتحي أبو النصر، محمد رمضان، السماح عبدالله، يوسف القدرة، أحمد خالد. وللناقدَيْن: يسري عبد الله، محمد غريب. وللرُّوائِيِّين: عبد النبي فرج، أسامة حبشي، أحمد زين، نعيم صبري، ماهر عبد الرحمن. ولرفاق الطفولة والشباب: الراحل الكبير مجدي سرحان، أحمد الشرقاوي، محمد فرج، تشيتينا دي نتالي، رضوى العطار، السيد رمضان، إيمان أبو الغيط أحمد محمد فرحات، وللأستاذين: إبراهيم عادل، كريم أفنان.

عن الكاتب:



- أشرف يوسف.
- من مواليد السبعينيَّات بإحدى قرى محافظة الدقهلية، ويقيم حاليًا في القاهرة.

- متفرِّغ للكتابة منذ عام ونصف العام.
- عمل في مِهَن عديدة، منها: تاجر أقمشة ومنسوجات، محاسب بإحدى شركات الأدوية بالمنصورة، محرِّر كتب بأكثر من دار نشر مصرية وعربية بالقاهرة، ومدرِّس لغة عربية لغير الناطقين بها، بِشكلٍ حُرٍّ.

خِبرات أخرى:

- مُحاضِر عن الشعر والحداثة في برنامج "كلام للشباب" في المركز الثقافي الإيطالي 2013.
- حرَّر (مع آخرين) أعدادًا من مجلات ثقافية، منها الكتابة الأخرى وأدب 21. ومن الكتب: سلسلة الكتاب الأول للشباب، كوميكس عربي، أعمال الكاتب السكندري محمد حافظ رجب.

الأعمال الشعرية المنشورة:

- "وَردةُ التَّخييل الذَّاتيِّ"، رسوم: كارولينا كوريل، القاهرة **٢٠٢١**، الطبعة الأولى: طبعة محدودة ورقية بعدد ٢٥ نسخة، ونسخة إلكترونية للجميع بصيغة

Pdf تنشر لأول مرة بالتزامن في مدونة بيت النَّص.

- "مقهى صغير لأرامل ماركس"، دار شرقيات، القاهرة 2015.
- "حَصيلتي اليوم قُبلَة"، دار شرقيات، القاهرة 2007.
- "يَعملُ مُنادِيًا للأرواح"، دار شرقيات، القاهرة 2002.
- "عبور سحابة بين مدينَتَيْن"، مطبوعات أدب 21، المنصورة ١٩٩٧.
- "ليلة 30 فبراير، قصائد منسوخة"، دار أدب الجماهير، المنصورة 1995.

- كما نُشِرَت له العديد من الكتابات في جرائد مصرية وعربية، وتُرجِمَت مختاراتٌ من أعماله إلى الفرنسية.

قيد التجويد والنشر:

- في مديح مرايا المكتئبين، متتالية شعرية، أُنجِزَ كتاب في مديح مرايا المكتئبين في الفترة بين ٢٠٠٨ و٢٠١٥، ومن عناوين أقسامه الداخلية: أَخويَّة الكَهفِ، مقبرة المجانين، عشرة أناشيد للكآبة، أصوات الشعراءِ، وجوه القصيدة، وغيرها...
- قصص المشرَّدين في القاهرة، فوتوغرافيا: المؤلف، وكتابة حُرَّة عن كيف نراهم في الفن والحياة.
- ضدَّ الناشر، بحثٌ ثقافي من وجهة نظر مؤلِّفي الكتب عن صناعة وسوق الكتاب في مصر، بالإضافة إلى مدخل قصصي بعنوان: نعم، كنت عاملا في قطاع النشر.
- أسجاعُ جماعَةِ التَّخاطُب عن بُعد، مسودة لرواية تسجيلية، أربع فقرات أو أجزاء حتى الآن: (تمهيد شخصي، دفتر الجوزاء، كتاب الويك إند، المدونة السرية لمهدي عامل)، الغلاف والرسوم الداخلية: استكشات للفنانين: جوليانا نوتاري، مجدي

سرحان، سلفادور دالي، هند عدنان، عادل السيوي، عمر جهان، موديلياني، وآخرون.

- أصدقكم القول: أنا فأر متردِّد، رسوم: كارولينا كوريل، أُنجِزَ كتاب أصدقكم القول: أنا فأر متردِّد في عام ٢٠٢٠، وفي ظروف عُزلَةِ جائِحَةِ كورونا، والكتاب مُتتالِيَة شِعريَّة من قسمين، هما: فأر متردِّد، في معنى الذبول.

الخَّلفيَّة الدِّراسيَّة:

ـــ حاصل على بكالوريوس تجارة، قسم محاسبة، جامعة المنصورة 1992.

البريد الإلكتروني: ashraf70y@yaoo.com